تيارات حضارية

في التاريخ الإسلامي

تأليف

دكتور عبد الحليم عويس

دار الهداية

ملامــح الحيـــاة السياسيــة والثقافيــة فى المغــرب
خــلال القرنين الخامس والسادس للهجرة

اولا ـ الحيــاة السياسيــة

ثانيا : ـ الحيــاة الثقافيــة

أولا : الحيـاة السياسية :

ملامـح عامـــة :

تقلبت أحـوال الأندلس الاسلاميـة فى القـرن الخـامس الهجرى تقلبات عدة ، بيـد أن السمة العامة التى سيطرت على كـل تقلباتها فى هـذه الفترة الممتدة من أول القـرن الخامس الهجرى الى منتصف القـرن السادس الهجرى ، كـانت سمـة الضعف والفرقة الداخلية ،وفى النصف الاول من القرن الخامس الهجرى كانت سياسة حكام المغرب الادنى والمغرب الاوسط ، سياســة اقليميــة متصارعة ، وبالتالى فنحن لانتوقع علاقـات خارجية يمكن أن تمتد خيوطها بين أهل الجزائر وتونس وبين غيرهم بصورة مستقلة واضحة وكل ما نتوقعة أن تكون ثمـة علاقات أخرى حضارية اقتصادية أو عمرانية ·

على أن ثمــة عاملين آخريــن يساعدان فى الكشـف عـن طبيعة العلاقة السياسية بين المغرب والاندلس فى هذه الفترة :

أولهمـا : أن حكام المغرب الاوسط والمغرب الادنى كانوا يخضعون سياسيا للفاطميين الشيعة فى القاهرة ، بينمـا كـان الخط الاندلسى العام معاديا للشيعة على كثرة تقلب حكوماته·

وثانيهما : أن زنانة التى حاولت أن تعتمـد على بنـى عامر فى الاندلس ضد صنهاجة ، قـد سدت باب الاتصال بيـن الاندلس وصنهاجة سياسيا ، بفرعيها الزيرى والحمادى اللذين كانـا يحكمان المغرب الادنى والمغرب الاوسط ·

فلما انتهى عصر الطوائف فى السنوات الاخيرة من القرن الخامس الهجرى على يد المرابطين (٤٧٩هـ) صارت الاندلس مجرد تابع للسياسة المرابطة ، ولم تكد تنفصل عن المرابطين حتى انتقل أمرها - لا سيما فى علاقاتها الخارجية - من يد المرابطين الى يد الموحدين . وكان ذلك فى القرن السادس الهجرى .

فمن الملاحظ أن الاندلسيين طيلة القرن الخامس ، لم تكن لهم سياسة خارجية ذات شان فى عهد ملوك الطوائف ، بفعل صراعاتهم الداخلية ، وبالتالى فقدوا السيطرة - طيلة القرن الخامس - على سياستهم الخارجية سواء لتفككهم أو لسيطرة المرابطين .

لكن هل يعنى هذا عدم وجود اتصالات سياسية بالمرة بين الاندلس والمغربين الادنى والاوسط ؟ انه ، وان لم تكن هناك صلات مباشرة ، فان الجزائر وتونس قد مثلت - بالنسبة للاندلسيين - لا سيما فى فترة الازدهار - ملجأ سياسيا مهما ، كما بقيت بلاد المغرب بعامة تمثل للاندلسيين المرفأ الحنون عندما تنزل النوازل أو يتكاثر الاعداء .

ونحن نلمح هنا وهناك من الاحداث مايؤكد هذه الحقيقة فابن خلدون يروى لنا أن «على بن مجاهد العامرى» صاحب دانية ، عندما فر أمام «ابن الحجاج» قائد يوسف بن تاشفين، لم يجد أمامه ملجأ الا بجاية ، ونزل على الناصر بن علناس فاكرمه (١) ، كما يحدثنا غير واحد من المؤرخين وعلى

---

(١) العبر ٣٨٣/٦ .

راسهم «عبد الله بن بلقين» آخر ملوك بـن زيرى بغرناطة ، عن لجوء معز الدولة بن المعتصم بن صمادح ـ حاكم المرية ـ الى بجاية باشارة أبيه عليه أن ينجو بنفسه الى القلعة ، اذا استولى يوسف بن تاشفين على المريـة ، وعندما وصـل معـز الدولة هذا الى الجزائر أكرمه صاحب القلعة (المنصور)، وأمنه فى ذخائره ، وأكـرم ضيافته ، وخيره حيث يحب السكنى ، فاختار «تدلس» على البحر (٢) وكان ذلك فى رمضان سنـة ٤٨٤هـ .

* * *

أما المغرب الاقصى خلال النصف الاول من القرن الخامس فكانت تغلب عليه الفوضى الطائفية الدينية ، ولا سيما حركة المتنبئين التى عرفت بهـا زنانة ، وكان قبل ذلك بقليل تابعا للاندلس (أيام المنصور بن أبى عامر وقبله) ولم يحس ببعض الاستقلال الا مع ابتداء عصر الفتنة فى الاندلس (٣٩٩هـ) حين انشغلت الاندلس بنفسها وأخذت تتاكل داخليا ، أى أنه بايجاز كان تابعا رسميا خلال هذه الفترة للاندلس ، وان كان واقعيـا مستقلا ومنشغلا بنفس الظروف الطائفية التى تمر الاندلس بها.

علاقـة المغرب الاوسط بالاندلس

ولقـد كـانت بجاية ـ عـلى وجـه الخصوص ـ بموقعها الساحلى والمركز الممتاز الـذى احتلتـه بابـا لانشاء علاقـات

---

(٢) مذكرات الامير عبد الله آخر ملوك بن زيرى بغرناطة تحقيق ونشر ليفى بروفنسال ص١٦٧ ،١٦٨، والكامل ٢٩٢/٩ والحلة السيراء ٨٩/٢ ، ٩٠ والعبر ٣٦١/٦ ، ٣٨٤ .

متنوعة مع أسبانيا(٣)، لا سيما في مجالى الاقتصاد والعمران. وبديهى أنـه من الصعب أن نفرق تفرقة حاسمة بيـن العلاقات الاقتصادية والسياسية ، فلكليهما بالاخر كبير صلة .

وجدير بالذكر أن العنصر البربرى الذى رحل الى الاندلس مـع بـروز الحكـم البربرى للمغرب الاوسط وافريقية بقيادة صنهاجة ، هـذا العنصر الذى كـان التنافس العائلى البربرى الداخلى سببا فى هجرته تلك ، كان أحد طرائق الاتصال بين الجانبين .

ولقد نجح البربر المهاجرون الى الاندلس فى اقحام أنفسهم فى مجال السياسة وحكموا مدنا كثيرة من مدن الاندلس أيـام الطوائف واندمجوا فى المجتمع الاندلسى بوسائل شتى ، فلمـا اشتدت وطأة النصارى على ملوك الطوائف كانت المغرب الاوسط خلال القرن الخامس ، بما أشيع عنها من أمن وتحضر نسبيين أكبـر الملاجىء المتاحة للساخطين على أحوال ملوك الطوائف والمتوجسين خوفا على مستقبل الاندلس .

وكانت المدن الساحلية تضـم أعدادا كثيـرة من هـؤلاء المهاجرين الاندلسيين الذين نقلوا الى الجزائر خبرتهم وعلومهم واندمجوا فى المجتمع المغربى اندماجا تامـا .

ومـن الواضـح أنـه نتيجـة للظروف السياسية الاندلسية والمغربية التى سادت خـلال هـذا العصر ـ كانت العلاقة بيـن الاندلس والمغربين الاوسط والادنى (افريقية) علاقة اقتصادية واجتماعية وثقافية ، أكثر منهـا علاقة سياسية .

---

(٣) الاسلام فى المغرب والاندلس ليفى بروفنسال ٢٧٠ .

وجديــر بالذكر أن وجــود المرابطين الاقوياء الطموحين بــدءا من منتصف القرن الخامس الهجرى ــ على وجه التقريب فى المغرب الاقصى وموريتانيا وعلى مقربة من المغربين الادنى والاوسط ، وحاجزا أيضا بين المغربين والاندلس ــ كــان لـــه تأثيــره فى غموض العلاقات السياسية بيــن دولتى « صنهاجة الشمال والاندلس » ٠

فلمــا قــدر الله للمرابطين أن يستولوا عــلى الاندلس ، اعتبرت الاندلس جزءا من دولة المرابطين المغربية الموطن أصلا والصنهاجة نسبة ، والجار القوى للجزائر وتونس مكانا ٠

وبالتالى فقــد انقطــع الخيط السياسى مــع الاندلس ، واعتبرت العلاقات السياسية مع المرابطين تعنى ــ فى داخلهــا العلاقة مع الاندلس سياسيا ــ كذلك ٠

وبما أن العلاقة بين فرعى صنهاجة (الشمالية فى الجزائر وتونس) والجنوبية فى المغرب الاقصى وموريتانيا) كانت علاقة حذر ومسالمة ، ولم يكن المرابطون يريدون الانشغال بحروب داخلية ، بل يهدفون ــ فى سياستهم العليا ــ الى خدمة الاسلام ضــد النصارى والوثنية ــ فبالتالى بقى «السلام» قائما فى هذه الجهة ، لكنه سلام قائم على القوة والحذر ٠

ومن هنا فان العلاقة السياسية بين الجزائر وتونس ،وبين الاندلس (الاوربية الاسلامية) خلال هذا القرن الخامس ، اما شبــه مقطوعة لانشغال كل بمشكلاتة الداخلية الطاحنة ، وذلك خلال النصف الاول ،واما علاقة غير مباشرة يتولاها المرابطون فتبدو وكأنها علاقة بين المغاربة بعضهم البعض، حيث سيطرت

صنهاجة بفرعيها على الاندلس والمغرب معا ، وكان ذلك خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى .

علاقات المغرب الاوسط بأوروبــا النصرانية :

تعاونت عدة عوامل على تحديد نوعية علاقة الجزائريين بأوربا النصرانية خلال القرن الخامس الهجرى .

وكان موقع هذه الدولة المغربية وسط الدول الموجودة فى المغرب ، وكحاجز بيــن المرابطين والنورمان ، ابرز العوامل فى تحديد نوعية السياسة الجزائرية مع المسيحية . وبمــا أن العلاقات المغربية الداخلية القائمة بين دول المغرب كانت علاقات تفكك وصراع فى أغلب أحايينها ، لذا لم يحاول حكام الجزائر فتح باب جديد من أبواب الصراع على أنفسهم ، حتى ولو كان هذا الباب جهادا مقدسا ضد النصارى وقد استغل الغزو المسيحى هذه النقطة ، فحاول جهده تعميق علاقات الــود بينــه وبيــن الحماديين حكام الجزائر وعدم تهييجهم (٤) .

ومن الملاحظ أن العلاقات بين الحماديين والمسيحيين لم تبــرز واضحة قويــة الا فى النصف الثانى من القــرن الخامس الهجرى ، وحتى نهاية الدولة . أما قبل ذلك فقد كانت سياسة الدولــة الخارجيــة تخضــع بنسبــة كبيــرة لسياســة الزيريين والفاطميين ، كما أن هذه السياسة لــم تسر على وتيرة واحدة فحينما وجد النصارى أن علاقة السلم التى تربطهم بالحماديين حكام الجزائر فى غير صالحهم ، ورأوا فى الحماديين منافســا

---

(٤) أنظر تاريخ الجزائر للهلالى ٢/٢١٠ .

فى مجال الاستيلاء على المدن الزيرية (التونسية) التى كانوا يطمعون فى الاستيلاء الكامل عليها بعد استيلائهم على مالطة وصقلية ، فى هذا الوقت هاجموا الجزائر بشراسة وعنف (٥).

كان النورمانديون قد نزلوا – على امتداد القرنين الثالث والرابع للهجرة من شمال فرنسا الى جنوبها ،وشرعوا يتعقبون المسلمين ويناجزونهم فى ايطاليا ، حتى ملكوا جميع البلاد الاسلامية فى جنوب أوربا – وساعدهم على ذلك تراجع أمر الدولة الصنهاجية اثر الزحف الهلالى سنة ٤٤٢هـ (٦) .

ولم تقف اطماع هؤلاء النورمان عند محاولتهم ازالة الحكم الاسلامى من أوربا بل جنحوا الى التغلب على المسلمين فى مواطنهم الامنة فى افريقية (٧) ، فأصبح واجب الدفاع عما بقى من سيادة المسلمين على غرب البحر الابيض المتوسط على عاتق بن زيرى أصحاب افريقية وبنى حماد أصحاب القلعة (٨) ، لكن قدر على الزيريين فى المهدية أن يتولوا وحدهم – فى هذا الجانب – عبء الجهاد ضد هؤلاء الغزاة ، حتى سقطوا أمام زحفهم المستمر بعد كفاح قرابة ثلاثة أرباع قرن ، كما وقف المرابطون – من جانبهم – يكافحون فى

---

(٥) أنظر تاريخ الجزائر العام للجيلالى ٣٨١/١ .

(٦) أنظر تاريخ غزوات العرب شكيب أرسلان ٣٠١ وقد ذكر أن الزحف الهلالى كان سنة ٤٥٢وقد ذكرنا تاريخه الصحيح وهو ٤٤٢ .

(٧) المكان السابق نفسه .

(٨) أنظر ظهور الاسلام فى البحر الابيض المتوسط دكتور حسين مؤنس ص ١١٧ .

ميــدان آخر . أمــا الحماديون فى الجزائر فلــم يلــح الخطر عليهم باتخاذ موقف مماثل ، وتمكنوا من اقامة علاقات وديــة (ظاهريا) مــع النصارى مــدة طويلــة .

لقــد أقــام الناصر بن علناس الحمادى حاكم الجزائر فى العقدين السادس والسابع من القرن الخامس علاقات وديــة مع البابا «جريجورى السابع» ومدن الساحل الايطالى (٩)، وكان ممــا توصل اليــه جريجورى والناصر اقامــة أسقفية فى بونــة (عنابة) ، ترك للنصارى الموجودين فى بونــة حريــة انتخاب أسقفهم ، وقــد انتخبوا أسقفا يدعى «سرفاند» صادق الناصر عــلى تعيينــه (١٠) .

ويحدثنا جنرال (دوبليه) أن هــذا الاتفاق الودى بيــن الناصر والمركز البابوى (الكرسى الرسولى) هيأ نوعا من الامان للقضايا المسيحية ، بل ان المؤرخ «فرديناند جوتيه» يــرى أن هــذا الاتفاق منــح الرعايا المسيحيين أمانا كاملا ، ومبالغة فى تعميق الود استغل الناصر فرصة سفــر «سرفاند» الى «البابــا جريجورى» فحمله هدايا جليلة ، كما حمله رسالة ودية الى البابــا ـ لــم يحفظ لنــا التاريخ نصها ـ كمــا اشترى الناصر جميع الاسرى النصارى الذين عثــر عليهم بمملكته ، وأرسلهم هديــة الى البابا ، ووعده بأن يعتق كل أسيــر مسيحى يعثــر عليــه من بعــد (١١) .

---

(٩) دائرة المعارف الاسلامية ٣٧٩/٦ .
(١٠) تاريخ الجزائر للميلى ٢١١/٢ .
(١١) تاريخ الجزائر للهلالى ٢١١/٢ .

وفى عام ٥٠٩ هجرية (١١١٤م) وقع حادث تدل نتائجه على رغبة حكام الجزائر الحماديين الملحة فى ارضاء المسيحيين فقد وقع بعض رهبان «مون كاسان» فى أيدى القراصنة ! ! (المنتمين للحماديين حكام المغرب الاوسط) أثناء عودتهم من سردينيا الى صقلية ، وبعد فترة وجيزة مرت عاصفة على سواحل صقلية بالرهبان الذين كان قد أرسلهم المطران الاكبر لافتداء اخوانهم ، وقد بادر الكونت روجيه – حاكم صقلية – بارسال مبعوثية الخاصين الى العزيز ملك القلعة ، فرحب العزيز بمساعى روجيه وقبل وساطته .

وقد استقبل حكام الجزائر من النصارى اعدادا غفيرة خلطوهم بانفسهم واستعانوا بهم فى بعض أعمالهم ، لا سيما العمرانية .

سياسة الجانب النصرانى تجاه المغرب الاوسط

لقد غلب على سياسة حكام المغرب الاوسط تجاه النصارى روح التسامح والود كما شرحنا ، ولم يتركوا فرصة الا استغلوها لتعميق هذه العلاقة ، لكن النصارى كانوا ينظرون الى الامور نظرة مصلحية محددة ، فما أن استوجبت ظروفهم المصلحية الانقضاض على الجزائر حتى بادروا الى ذلك ، دون نظر الى أية خدمات جزائرية سابقة أو أية عهود أو مواثيق ، كما هو الشان فى الحكومات النصرانية واليهودية دائما .

وقد حاولوا اغراق الاسطول الجزائرى أمام المهدية سنة ٥٢٩هـ كما شهدت سنة ٥٣٧هـ ١١٤٢م هجومهم على جيجل ، وتتابع هجومهم على المدن الجزائرية الساحلية ، وبدءوا بعد استيلائهم على المهدية سنة ٥٤٣هـ ١١٤٨م محاولة الاستيلاء

على المغرب الاوسط وهاجموا مدينة بونة لهذا الغرض ، ولم يمنعهم عن التوغل فى الارض الجزائرية الا ظهور الموحدين ، الذين وضعوا حدا لاطماعهم وتوسعهم .

علاقة المغرب الادنى باوربا :

حكم بنوزيرى المغرب الادنى خلال القرن الخامس الهجرى الى ان سقطت عاصمتهم القيروان فى يد الاعراب سنة ٤٤٩، وتم انتقالهم الى المهدية التى خضعت خلال القرن الخامس الهجرى لبنى زيرى ، وان كان الاعراب الوافدون من الجزيرة العربية ومصر قد ساحوا فيها وخربوا كثيرا من اجزائها وحصروها فى الساحل التونسى .

والى منتصف القرن الخامس الهجرى تقريبا كان بنو زيرى تابعين فى سياستهم الخارجية للفاطميين ـ على الاقل من الناحية الرسمية ـ لكن ذلك لم يمنعهم من اقامة علاقات مع أوربا الاسلامية والنصرانية .

ومن ابرز صور علاقات تونس باوربا اتصال تونس بصقلية التى كانت تحت السيطرة الاسلامية منذ فتحها الامير أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ ، وامتد حكم الاغالبة فيها ثمانين سنة حتى سقطوا ، واستولى عليها الفاطميون ، فلما رحلوا الى مصر سنة (٣٦١هـ) تركوا صقلية لنوابهم الصنهاجيين بتونس فى أغلب الاحيان .

وقد مهدت الظروف لبنى زيرى (حكام تونس) فرصة التدخل فى شئون صقلية عندما وقعت فتنة بين الصقليين المقيمين بالجزيرة ، وسكانها من الافارقة ، فذهب بعض أهل الجزيرة

من الصقليين الى الامير المغربى باديس سنة ٤٣٧ يطلبون مساعدته ، والا اضطروا لتسليم الجزيرة للروم ٠٠ فاستجاب المعز على الفور ، وأرسل معهم ابنه (عبد الله بن المعز) بجيش عدته ثلاثة آلاف من الفرسان ومثلهم مترجلون ٠٠ ولم تنقطع اتصالات بنى زيرى بالجزيرة منذ ذلك الحين ، وان كانت تخضع للظروف العامة ـ بحسب حجم الاخطار المحدقة بالجزيرة الى أن استولى عليها النورمان بعد هزيمة بنى زيرى أمام روجار النورمانى سنتى ٤٦٤ ، ٤٨٤هـ (١٢) ٠

ولعل وقوف بنى زيرى أصحاب المغرب الادنى (تونس) مع صقلية وجنوب ايطاليا على هذا النحو هو الذى جعل (روجار النورمانى) يعقد العزم على الاستيلاء على تونس ٠ فاستولى على جربة سنة ٣٥١هـ ، ثم صفاقس سنة ٥٣٨هـ ثم قرقنة سنة ٥٤٠هـ ، ثم المهدية ٥٤٣هـ ، حتى ظهر الموحدون واعادوا تونس كلها الى حظيرة الاسلام سنة ٥٥٥هـ ٠

* * *

أما عن علاقة حكام المغرب الادنى بالاندلس ، فكانت كعلاقة أبناء عمومتهم فى المغرب الاوسط بهم ـ اى أنها كانت علاقة حضارية اقتصادية واجتماعية وثقافية ٠٠ أما العلاقة السياسية فكانت محكومة بالظروف نفسها التى خضع لها حكام الجزائر ، اى بظروف سيطرة الفاطميين على الجانب السياسى الرسمى من جانب ، ثم ظهور المرابطين الذين اصبحوا أكبر قوة مؤثرة فى المغرب كله خلال هذا القرن ، ثم ضموا الاندلس الى دولتهم ٠

---

(١٢) انظر أرشيبالد لويس : القوى البحرية ص ٣٧٥ ٠

على أن الدول الطائفية الاندلسية البربرية التى تنتمى الى بنى زيرى ، والتى كان لها شأنها فى الاندلس فى عصر ملوك الطوائف ـ وعلى رأسها دولة بنى باديس فى غرناطة ـ قد مثلت جانبا من جوانب الاتصال السياسى بين المغرب الادنى والاندلس خلال هذا القرن .

علاقة المرابطين بأوربا :

ما ان استقرت قواعد المرابطين بالمغرب حتى نظروا الى العدوة الثانية حيث كانت الاندلس تمر بعصر طوائف كاد يقضى عليها ، فسقطت طليطلة سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) وكانت بلنسية واقعة تحت ضغط الطاغية لذريق النصرانى ، الملقب بالكمبيطور فهو يجبى المال من رعيتها ويستغل حاضرتها وباديتها بعد أن غدر بصديقه خضير ابن ذى النون ملك بلنسية، كما غدر بابن هود على النحو نفسه ، واستولى على سرقسطه فى شعبان سنة ٤٨٥هـ (١٣) .

وفى مواجهة هذا السقوط الاندلسى كان غزو المرابطين الاول للمغرب سنة ٤٧٩ وهى الطلعة الكبرى التى شهدت موقعة الزلاقة فى رجب ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) .

ثم كان الجواز الثانى اليها سنة ٤٨٢هـ .

ثم كان الجواز للمرة الثالثة فى أوائل سنة ٤٨٣هـ . وهو الجواز الذى قضى فيه الامير يوسف على ملوك الطوائف العابثين .

---

(١٣) أنظر ابن عذارى المراكش : البيان المغرب ٤/٣١ بتحقيق د. احسان عباس ، طبع دار الثقافة بيروت .

ـ وقـد ظل المرابطون ـ بعـد ذلك ـ ينفقون جهودهم لانقاذ بلنسية ، حتى أعادوا فتحها سنة ٤٩٥هـ ، وعلى اثرهـا دخلـت سرقسطة وبقيـة مـدن الثغـر الاعـلى تحت سلطـان المرابطين (١٤) ٠

وجدير بالذكر انـه عندما جـاز يوسف بن تاشفين الـى الاندلس جوازه الرابع سنة ٤٩٠، وأخذ البيعة لابنه أبى الحسن على سنة ٤٩٥ شرط على ابنـه أن ينشىء فى الاندلس جيشـا مرابطيا ثابتا يوزعه على سائر القواعد فى الاندلس ٠ وقد نجح على ابن يوسف فى استئناف الجهاد وانتصر انتصارا كبيرا على الجيش القشتالى سنـة ٥٠١ ، فاعـاد الـى المسلمين ذكريات الزلاقـة (١٥) ٠

***

واخيـرا :

فاننا نستطيع القول ـ بصفة عامة ـ ان العلاقات السياسية بين المغرب وأوربـا النصرانية خـلال القرن الخامس الهجرى كانت هى العلاقة الواضحة ـ نظرا لطبيعة الصراع الذى احتدم بسبب تفكك المسلمين فى المغرب والاندلس معـا ٠ ولم يظهـر بصورة قويـة نماذج للتاثر الحضارى الذى كان جليـا خـلال القرن الرابـع ، ولا سيمـا ايـام عبـد الرحمن الثالث الملقب

---

(١٤) انظر د٠ عبد الرحمن الحجى : التاريخ الاندلسى ٤٢٣ نشر بغداد ٠

(١٥) المرجع السابق ٤٢٤ ، ٤٢٥ وأنظر بالتفصيل أخبار على بن يوسف فىالبيان المغرب (ابن عذارى)٥٢/٤ وما بعدها٠

بالناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠) أو أيـام ابنه الحكم (٣٥٠ ـ ٣٦٦) أو أيـام الاسرة العامرية ، حيث كانت قرطبة (جوهرة العالم). أو أيام المرابطين !!

ومـع أن (القيروان) فى المغرب الادنى ، (وبجاية) فى المغرب الاوسط ، كان لهما شـأن خـلال هـذا القرن ـ الا أن ظروف الاندلس المضطربة ، وهى القنطرة الى أوربا ، حالت دون بروز التأثيرات الحضارية لهاتين العاصمتين الكبيرتين .

فلما جـاء المرابطون ، كان عليهم أن يجندوا أنفسهم ـ طيلة عهد يوسف بن تاشفين (٤٦٢ ـ ٥٠٠) ـ أى طيلة الحكم المرابطى خلال هـذا القرن الخامس لاصلاح ما أفسـده ملوك الطوائف . وللدخول فى معارك طاحنة صبغت العلاقات المغربية الاوربية بصبغة خاصة ، وجعلت العلاقات السياسية والعسكرية هى العلاقة المسيطرة والبارزة .

الحيـاة السياسيـة لـدى الموحدين
(٥٢٤ ـ ٦٦٨ هـ)

المهدى بـن تومرت (مؤسس الدولة) رؤيـة تقويمية :

تعتبر شخصية « محمد بن تومرت » الملقب بالمهدى من الشخصيات القلقة فى التاريخ الاسلامى على الرغم من أن هـذا الرجل قـد نجح فى تأسيس دولة مـن أعظم الدول التى ظهرت فى جناحى الاسلام الغربى (المغرب والاندلس) ! !

وبدءا من نسب الرجل ، وتاريخ ميلاده ، وحقيقة مبادئه الـى أسلوبـه الدموى فى تصفيـة خصومـه ، تقـوم الخلافات والتناقضات فى الرؤية التاريخية لهذه الشخصية الغريبه لدرجة أنه من الصعب القول برأى واحد صحيح حول الحياة الشخصية والفكرية للمهدى بن تومرت مؤسس دولة الموحدين ٠

وعلى الرغم من أن ابن خلدون ، حين يحدثنا عن نسب المهـدى بـن تومرت يتكلم بأسلوب تقريرى ، وكأنه يستعرض حقائق مفروغا منها ، فهو فى رأيه ـ يتصل نسبه بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه (١٦) وكل من يخالف ذلك فى رأى ابـن خلدون انما هـو حاقد ، أو موال لدولة المرابطين ، أو مـن طبقة الفقهاء الموتورين على يـد ابن تومرت ـ الا أننا يجب أن لا ننسى أن ابن خلدون ليس حجة فى الانساب ، وان كان حجة فى علم الاجتماع وتفسير التاريخ ، أليس ابن خلدون هو

---

(١٦) العبر ٦/٢٢٦ طبـع بيروت ٠

الـذى أرجـع بمؤسس الدولـة الفاطميـة الى أصـل نبـوى أيضـا ؟ ! ! (١٧) .

واذا اعتمدنا على الاستيطان التاريخى فى تقريـر نسـب ابن تومرت ، فاننا لا نجد فيه الا دما بربريا أصيلا ، لا يجنح الى العروبة ، أو النسب العربى ، بعاطفة أو تفاعل .

وقد غلب التعصب البربرى على سلوكه ، فترجم القرآن الى البربرية ،ومال الى النعره البربرية ، وجعل اللغة البربرية لغـة الدعوة الرسمية ! !

وليس ادعاؤه النسبـة الى على الا أسلوبـا مـن أساليب السيطرة على العامـة ، وجذب الاتباع بالاضافة الى أن دعـاء النسبه الى البيت النبوى يمثل نزعة مغربية سيطرت ، ولاتزال تسيطر على كثير من العائلات المغربية أما ما نميل اليه ، ومال اليـه كثير من الباحثين المحدثين فهو انه أصيل فى قبيلة هرغة من مصمودة (البرانس) التى تسكن منطقة السوس (١٨) .

ولقبه (تومرت) يرجع كمـا يقول البيذق مؤرخ الدولـة الموحدية الى شهرة أبيه عبد الله من صغره الى كبره ـ بتومرت

---

(١٧) للمؤلف دراسة موجزة فى نفى نسبة الفاطميين الى فاطمة فى مقدمة تحقيقه لمخطوط « اخبار ملوك بنى عبيد » لمحمد بن حمـاد الصنهاجى ، نشـر دار العلوم بالرياض وفى العدد السادس من مجلة كلية العلوم الاجتماعية دراسة مفصلـة عـن الموضوع .

(١٨) أنظر د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الاندلسى ٤٥٦ نشر بغـداد .

ابــن وجليد ـ لان أمــه لــا ولدته فرحت بــه ، وكانت كلمــا سئلت عن حالته تعبر عن سعادته بانه (يك تومرت) ومعناها صــار مسرورا ـ (باللسان البربرى) ! !

وقــد شاع بين المؤرخين أنــه ولــد سنة ٤٨٥هـ لكن مــن المؤكد أنــه رحل فى طلب العلم الى قرطبة والمرية على مشارف القرن السادس ، وربما قبل بزوغه بعام أو عامين وهذا يجعل ولادته فى التاريخ الانف الذكر أمرا غير مقبول عقليا والارجح أنــه ولــد قبــل ذلــك بسنوات عديــدة وربما كــان ذلك سنــة ٤٧٣هـ (١٩) وأنه انتهى ـ قبل رحلته الى الاندلس فى المشرق من طلب العلــم فى المستويات التعليمية الموجودة فى المغرب ، حتى يحق لــه الرحلة لمقابلة أعيان العلم ٠ وحتى يستطيع ـ أيضــا ـ اجتياز مصاعب الاغتراب ومشكلات الاسفار فى تلــك العصور ٠

وأيــا كان الامر ـ فقد رحل المهدى الى الاندلس ، ثــم المشرق ، حيث التقى ببعض علماء العصر ، قيل أن منهم أبا حامــد الغزالى (طوس ٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ) ٠٠ وان كــان بعض المؤرخين يتشككون فى لقائه بالغزالى والذى نعتقد أنــه أقرب الى اليقين أنــه التقى بالطرطرشى فى قرطبة (صاحب ســراج الملوك) كما أننا نعتقد أنه تتلمذ على فكر كثير منهم أبو محمد على بــن حزم الظاهرى (٣٨٦ ـ ٤٥٦هـ) ، كمــا أن تأثــره بالغزالى واضح فى آرائــه الكلامية التى كان فيهــا أقرب الــى الاشعرية ، ٠٠٠ وبالاضافة الى كل هذا فقــد كانت لــه آراؤه

---

(١٩) انظر مونتجمرى وات : الفلسفة والعقيدة فى المغرب ص ١٠٢ ٠

الخاصة التى جعلته يبدو انسانا متناقض الفكر يخرج بفكرة ـ احيانا ـ عن التفكير الاسلامى الصحيح كله وذلك مثل ادعائه العصمة واعتماده على بعض الحيل فى اقناع الناس بدعوته واستهانته بالدماء ودعوته لاحياء القومية البربرية وليس أدل على هذا الاضطراب الفكرى فى شخص المهدى بن تومرت ـ من أنه بعد أن استقرت الامور للدولة الموحدية بدأ امراؤها يتخلصون من كثير من آرائه ، بل أن تلميذه الوفى عبد المؤمن بن على نفسه (ت ٥٥٨) والامير الثالث أبا يعقوب يوسف الموحدى الذى ملك بين عامى (٥٥٨ ـ ٥٨٠هـ) كانا يميلان الى المذهب الظاهرى ، وينفران من كثير من الاراء الباطنية للمهدى الا انهما لم يظهرا ميلهما (٢٠) .

ويروى ابن أبى زرع المتوفى عام ٦٢٦هـ ، وتابعه فى ذلك صاحب الاستقصاء ان عبد المؤمن أمر سنة خمسين وخمسمائة بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة الحديث ، الا أن ذلك لم يتم ـ حتى ملك الامير يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ) فقام باحراق كتب الفروع ، كما قام بتخليص الدولة الموحدية من آراء المهدى الشاذة كالقول بالعصمة ، كما انه اعتبر المهدى مجرد مصلح دينى لا يعدو درجة ذلك (٢١) ،وقد مهد الامير يعقوب بذلك للامير أدريس المأمون .. (ت ٤٢٦هـ) (الامير الموحدى العاشر) من

---

(٢٠) المراكشى المعجب ١٨٥ طبع مصر ، و د. عبد الله علام : الدولة الموحدية ٣٠٨ ـ ٣٠٩ طبع مصر .

(٢١) انظر محمد ملين : عصر المنصور الموحدى ٢٤٣ طبع المغرب .

يعلن رسميا نبـذ آراء المهدي الشاذة وبراءة الدولة الموحديـة منهـا (٢٢) ٠

المهـدى بدايـة الدعـوة الموحديـة :

سيـر المهدى اثناء رحلته غور العالـم الاسلامى واضطلع على كثير من أمراضه ، كما أنـه رأى الكثير من أحـوال دول المرابطين فى المغرب ، وتعبد فقهائها بكتب الفـروع وتركهـم رسالة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى شاعت المناكير، وتلثم الرجال وسفـر النساء وبيعت الخمور علنـا فى الحانات وربيت الخنازير فى الحظائر ٠

هذا بينما كان على بن يوسف بن تاشفين رجـلا ضعيفا غلبـه فقهاء الفتنة على أمره ، وسوغوا له الاوضاع ٠

وقد اعطت هذه الاوضاع للمهدى الفرصة كى يثب فوقها، ويطعن من خلالها الدولة المرابطية ٠

وفى اثناء عودة المهدى من المشرق أخذ يدعو الناس الى التغيير والاصلاح اينما حل حتى سبقه اسمه الى مراكش عاصمة الدولة المرابطية كمـا أنـه فى اثناء مروره بتلمسان من المغرب الاوسط (الجزائر) التقى بأخلص تلامذته وأقربهم إليه واذكاهم وهـو عبد المؤمن بن على الكومى ، من بـلاد السوس الـذى قـدر لـه أن يخلفه مـن بعـده ويتحمل عبء تاسيس الدولـة الموحدية ، فلما وصل المهدى الى العاصمة المرابطية ، وجـد الفقهاء يتربصون بـه ، وقد أوغروا صدر السلطات الحاكمـة

(٢٢) د٠ عبد الله علام : الدولة الموحدية ٢٢٣ ٠

ضده ، ولم يجد الامير المرابطى على بن يوسف وسيلة عادلة الا أن يعقد بين الفقهاء والمهدى مناظرات تكشف حقيقة هذا الرجل وحقيقة دعوته .

وقد نجح المهدى فى أن يفلت من وسائل الايقاع به ، وصور دعوته على أنها مجرد (حسبة) تدعو الى تغيير المنكر وبرع فى تصوير المناكر الشائعة فى المجتمع حتى قيل أن الامير بكى فى المجلس .. لكن أحد أعوانه ويدعى مالك ابن وهيب أحس بما فى دعوة الامير من خطر على كيان الدولة ، فأشار عليه باعتقاله والانفاق عليه ، لكن أحد وزراء الامير ـ وكان معجبا بالمهدى ـ سارع فقال له : يقبح بك أيها الامير أن تبكى موعظة رجل ثم تسىء اليه فى مجلس واحد ، وأن يظهر منك الخوف على ملكك العظيم من رجل فقير لايملك سد جوعه فاستجاب الامير لكلام الوزير ، واكتفى بصرف المهدى عن مراكش بعد أن ساله الدعاء ! ! .

والحق أن الدولة المرابطية والمهدى معا ، قد اخفقا ـ من منظور اسلامى ـ فى الوصول الى العلاج السليم .

ولو نجحت الدولة المرابطية فى احتواء الرجل ، واعتباره دما جديدا يستطيع تجديد خلايا الدولة ، وبث المعروف والاصلاح فيها ، لكان خيرا كبيرا لها ، كما أن المهدى ـ لم ينجح فى أن يظل رجل دعوة اصلاحية وتغيير سلمى ، ولاسيما وقد وجد معاملة كريمة من أمير المسلمين على بن يوسف لكنه كان رجلا دموى النزعة ، انقلابيا ثائرا .. فكان عمر دولته قصيرا ولم يلبث سراجها أن انطفأ فى نصف قرن تقريبا لان أسلوب الدم والعنف لا يصلح أساسا لبناء الدول وبقاء

الحضارات ، وغالبا يعلمنا التاريخ أن ما يقوم بالدم ينتهى – كذلك – بالـدم ٠

هذا ٠٠ وقد ظل المهدى بـن تومرت يعمـل على اسقاط المرابطين واقامة دولته الموحدية حتى سنة ٥٢٤ هجرية عندما مـات متأثرا بجراحه فى معركة من المعارك ٠

وقـد أورد أبو بكر بن على الصنهاجى المكنى بالبيذق فى كتابه (أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين) ملخصا لتاريخ اعمال المهدى حتى وفاته ٠

وبما انـه أقرب مصدر للمهدى وأحواله ، اذ كان البيذق تلميذا للمهدى ومرافقا لـه ، فنحن ننقل عنه هـذا الموجز ، الذى يلخص لنـا سيرة المهدى ٠٠ فيقول :

بـــاب

ذكر تاريخ هذا الامير خلده الله مـن الغزوات والفتوحات وغير ذلك مؤرخا بحولـه وقوته تعالى(٢٣)

لمـا أراد الله انفاذ حكمه وانجاز وعده جـاء الله بالامام المهدى رضى الله عنه لأمـة محمد عليه السلام فضلا منه وهداية فبويع رضى الله عنه برباط هرغه وفقهم الله سنة خمس عشـر وخمسمائة ، فمكث هناك عام ستة عشر ، فجاءته جماعة هنتانه وفقهم الله مع أهل توندوت عـام سبعة عشر وخمسمائه ، ثـم طلع الى الجبل لكنفيسة فبايعوه هناك ، وفيه هزم بكور بـن على بن يوسف من السوس ، وفيه فتحت تاسيفموت ـ وقتـل فيه ابن وزر وال وحملت أبوابها الى تيمنمل ٠

وفى عـام ثمانية عشر وخمسمائة وجـد مهاجروا كنفيسة وأبو واطيل يكلدن بن يملول من بنى وكاس ، ثـم نـزل الى جبل نفيس ، ثم فتح بلاد ماغوس وهناية ووادى نفيس ٠

وفى عام عشرين وخمسمائة بعث طلبة الموحدين أعزهم الله منهم أبو موسى بن تمويق الى أهل تيفنوت ، وأبو محمد عطية المنكصى الى غجدامة ، وغيرهما من الطلبة المباركة ٠

وفيه مـات أبو موسى شهيـدا ٠

وفيه مـات أبو محمد عطية شهيدا ٠

---

(٢٣) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ص ٩٤ طبـع الجزائر ٠

وفيه نزل الامام المهدى رضى الله عنه الى تيفنوت وهنتانه ومشى الى تاسكدلت والى توبدوت والى جبل ويانكلت وفيه استشهد عبد المؤمن بن عمر مع الغازى يتيدير - بن ابى بكر .

وفيه فتحت توغدوين مسيفرة .

وفيه وجد المهاجرون منهم .

وفيه استشهد حموده بن يسلالى ثم رجع رضى الله عنه الى المدينة المباركة تينملل .

وفى عام أحد وعشرين وخمسمائة كتب الرسالة المنظمة الى الموحدين فى بعض غزواتهم وهى التى بعث الخليفة الى كزولة .

وفيه فتح رضى الله عنه تاسريرت .

وفى عام اثنين وعشرين وخمسمائة قاتل أوصليم بنى واوم غى .

وفيه غزا عمر بن تورتل بتاسكدلت .

وفى عام ثلاثة وعشرين وخمسمائة كان التمييز لابى محمد البشير رضى الله عنه فى آخره كان خروجهم الى البحيرة .

وفى عام أربعة وعشرين وخمسمائة كانت الوقيعه فى أول العام ....

وفيه توفى المهدى رضى الله عنه .

هذا وقد خلف المهدى على الموحدين تلميذه النجيب عبد المؤمن بن على الذى كتم أمر موت المهدى فترة طويلة وظل يقاتل المرابطين حتى اسقطهم سنة ٥٤١ واحتل

عاصمتهم مراكش ، واستطاع عبد المؤمن الاستيلاء على تونس وطـرد النورمانديين منها سنة ٥٤٣هـ ، ثم استولوا على دولة بنى حماد وأسقطوا عاصمتهم بجاية سنة ٥٤٧هـ ،وأصبح المغرب كلـه تحت أيديهم ٠

كما أنهم نجحوا فى الاستيلاء على الاندلس ، ودخلوا فى معركة شرسة مـع النصارى الذين كانوا قـد بدأوا فى استغلال ضعف دولـة المرابطين ، وقـد توجوا جهادهم ضـد النصارى بموقعة (الارك) التى كان بطلها أبو يوسف يعقوب بن يوسف الاول بن عبد المؤمن الملقب بالمنصور فى (٣ شعبان سنة ٥٩١ الموافق ١٠ يوليو ١١٩٥م) ٠

وتضم قائمة أمراء دولة الموحدين الاسماء التالية(٢٤) :

١ ـ المهدى (محمد) بن تومرت	توفى سنة ٥٢٤هـ
٢ ـ عبـد المؤمن بن على	٥٢٤ ـ ٥٥٨هـ
٣ ـ أبو يعقوب يوسف الاول	٥٥٨ ـ ٥٨٠
٤ ـ أبو يوسف يعقوب المنصور	٥٨٠ ـ ٥٩٥
٥ ـ محمـد الناصر الثانى	٥٩٥ ـ ٦١١
٦ ـ أبو يعقوب يوسف الثانى	٦١١ ـ ٦٢٠
٧ ـ أبو محمد عبد الواحد المخلوع	٦٢٠ ـ ٦٢١
٨ ـ أبو محمد عبد الله العادل	٦٢١ ـ ٦٢٤
٩ ـ يحيى المعتصـم بالله	٦٢٤ ـ ٦٢٦
١٠ ـ أبو العلاء ادريس المأمون	٦٢٦ ـ ٦٣٠
١١ ـ عبد الواحد بن المأمون	٦٣٠ ـ ٦٤٠

---

(٢٤) أنظـر زامباور ١١٣/١ ، ١١٤ وأنظـر د٠ شلبى الموسوعة ١٥٢/٤ ٠

١٢ ـ أبو الحسن على السعيد	٦٤٠ ـ ٦٤٦
١٣ ـ أبو حفص عمـر المرتضى	٦٤٦ ـ ٦٦٥
١٤ ـ أبـو العلاء الواثق	٦٦٥ ـ ٦٦٨

هذا وقـد سقط الموحدون بعد تعرضهم للهزيمة الشائنة على يـد النصارى فى الاندلس فى موقعة حصين العقاب سنـة ٦٠٩ هـ .

ومن ثـم تداعى نفوذهم فى الاندلس حتى تركوها سنـة ٦٣٣هـ ، وظـل أمرهم يتدهور حتى سقطوا سنة ٦٦٨ هـ ... وتقسم أرضهم المغربية الموحدة ثلاث قـوى هى :

١ ـ بنـو مرين فى المغرب الاقصى .

٢ ـ بنو عبد الواد (بنو زيان) فى المغرب الاوسط .

٣ ـ بنو حفص فى تونس .

* * *

ثانيـا : الحيـاة الثقافيـة :

تأثيرات السياسة فى التطور الحضارى :

كـان المغرب العربى خـلال القرنين الخامس والسادس للهجرة مسرحا لصراعات سياسية وعسكرية مستمرة .

فهذا المغرب ذو الجغرافية الواسعة ، لم تكد ترحل عنـه سنـة ٣٦١هـ دولة الفاطميين «بنى عبيد الشيعية» ... حتى تحركت فيه الصراعات السياسية ، والرغبات الشخصية والقبلية الطامحة الى الوقوف على قمة السلطة .

ولـم يكد القرن الخامس للهجرة يطل بسنواته الاولى ، حتى كان الهدوء الظاهرى قد تلاشى تماما فى المغرب العربى .

– ففى المغرب الاقصى كان بنو مدرار وبنوتجين وبنـو توالى وبنو يلومى وغيرهم يواصلون جهودهم للاحتفاظ باستقلال هذا الجزء عن دولة بنى زيرى الصنهاجية ،تلك التى خلفت الفاطميين فى حكم المغرب العربى .

– وفى الوسط المغربى ، أو ما عرف خلال هذه العصور «بالمغرب الاوسط» – وهى الجزائر المعاصرة – تمكن جناح من أجنحة صنهاجة التى تحكم المغرب العربى ، من الاستقلال بهذا الجزء الممتد من تلمسان غربا ، وحتى حدود المهدية شرقـا . وأسست بالتالى دولـة بنى حماد الصنهاجى .

– أمـا الجزء الممتـد من شرق المهديـة ، وحتى حـدود طرابلس الغرب فقد كان نصيب دولـة بنى زيرى التى تنتسب الى زيرى بن مناد الصنهاجى – خلفاء الفاطميين على المغرب كمـا ذكرنـا .

ـ ومع منتصف القرن الخامس للهجرة ظهرت دولة عقدية كبيرة سيطرت على المغرب الاقصى وجزء كبير من المغرب الاوسط ، وتمكنت من مد الطرف الى ما وراء جبل طارق ، فسيطرت على الاندلس ٠ ولم تكن هذه الدولة الا دولة المرابطين التى أسسها رجل العقيدة «عبدالله بن ياسين» ورجل السيف والدهاء «يوسف بن تاشفين » ٠

ـ وقد عاشت كل هذه الدول بين مد وجزر فى حروب متوالية ، حتى ظهرت دولة «الموحدين» التى قضت على المرابطين وبنى زيرى وبنى حماد ، ووحدت المغرب كله تحت رايتها قريبا من منتصف القرن السادس الهجرى ، وزادت فضمت الاندلس أيضا الى هذه الوحدة التى امتدت الى مابعد نهاية القرن السادس الهجرى ٠ وهذه ـ بايجاز ـ هى الأرضية التاريخية التى وقفت عليها حضارة المغرب فى هذين القرنين ٠

المكونات الثقافية للمغرب العربى الاسلامى

من البديهى أن العنصر البربرى بكل خلفيته الثقافية ـ يمثل واحدا من أبرز المكونات الثقافية للمغرب العربى الاسلامى ٠

على أنه لا يمكن ـ مع وجود هذا العنصر ـ اهمال المكونات الثقافية العربية التى استقرت على امتداد المغرب منذ الفتح الاسلامى ـ ولا سيما تأثير الدولتين الكبيرتين : بنى رستم فى تيهارت ، والفاطميين فى المهدية (٢٥) ٠

---

(٢٥) أنظر كتاب الجزائر لمحمد توفيق المدنى ص٧٨ ، ٦٩ ٠ والمغرب العربى لرابح بونار ص ٣١٦ ٠

وهذا لا يعنى اهمال شان الجهد الذى بذله البربر انفسهم فى تعلم العربية وعلوم الاسلام ، حتى اننا لنجد القرن الرابع الهجرى لم يكد يبزغ حتى صار كثير من «البرابرة» يزاحمون العرب فى علوم لغة «الضاد» ، واصبح علماء البربر يناظرون فقهاء العرب فى القواعد الاصولية والفروع الفقهية وقضايا علم الكلام (٢٦) ٠

لقد استطاع الطابع العربى ـ أن يغلب على الثقافة منذ مطلع القرن الرابع الهجرى ، وقد ساعد على ذلك أن الثقافة العربية جزء من الاسلام الذى هو عقيدة الامة ، وأن تاريخ الامة منذ ثلاثة قرون هو تاريخ هذه الثقافة ، وأن المغرب العربى محاط من كل أطرافه بثقافات عربية ، سواء من ناحية الشمال حيث «الاندلس الاسلامية» أو من الشرق ٠٠٠ حيث منابع الثقافة الاسلامية ٠٠٠٠ مما يجعلنا نطمئن الى القول بأن الثقافة العربية الاسلامية قد نجحت فى أن تكون الثقافة «الأم» والأولى ٠٠٠ منذ القرن الرابع الهجرى ، ونجحت فى أن تكون مناط عناية الدول البربرية ـ على اختلاف منازعها واتجاهاتها السياسية الرسمية ٠

ولقد حظيت العربية باحترام البربر ـ أيما احترام ـ على وجه العموم ٠ وقد اعتبروها لسان الادب ولغة العلم وعنوان الثقافة ، فانبلج ـ بالتالى ـ فى القرنين الخامس والسادس

---

(٢٦) أنظر تاريخ الحضارة المغربية لعبد العزيز بن عبد الله طبع دار السلمى بالدار البيضاء ص ٢٢ ج ٢ ٠

المهربين – «عصر جديد أصبحت فيه اللغة العربية ··· ربة المنزل ، وصاحبة الامر والنهي على القرائح والعقول»(٢٧) ·

– وعنـد منتصف القرن الخامس الهجرى حدث ما هـو معروف من زحف القبائل العربية على المغرب العربى ··

ومهما يكن من الاثار السلبية التى خلفتها هذه القبائل فى الحياة السياسية والاقتصادية والعمرانية (بخاصة) فى المغرب العربى – فانها كانت من الناحية الثقافية اكبر العوامل المؤثرة فى تعريب الثقافة المغربية ·· فقد أثرت لغة التخاطب لقبائل بنى هلال وبنى سليم فى اللسان البربرى ، الذى كان طاغيا على اللسان العربى فى الارياف ··· وفى المدن أيضا ·· وسارت عملية الاستعراب تبعا لعملية المزج والاحتكاك فى الحياة العملية اليوميـة ··

وقـد برز بهـذا المظهر الحضارى دور جديـد فى الاداب المغربية يسميه أحـد المؤرخين المعاصرين « بالدور المدرسي » وهو دور تم وضع حجره الاساسى فى القرن الخامس الهجرى ، وقـد ظل هذا الاتجاه يختمر فى القرن السادس للهجرة ···· وهـو دور يمتاز بأنـه آخـر الادوار المدرسية الاخرى – التي اختمرت فى الذهنية المغربية – ولهذا فقد جاء «خلاصة للادب العربى وزبدة للعقول »(٢٨) ·

ويبدو أنـه بعد هذا الدور بدأت «الجزائر» تدخـل فى

---

(٢٧) انظر بلاغة العرب فى الجزائر للاستاذ عثمان الكعاك ص ٢٩ ·

(٢٨) بلاغـة العرب فى الجزائر ص ٢٩ وانظـر كتـاب الجزائر لتوفيق المدنى ص ٧٩ ·

عداد الدول المعربة فعلا ... وقد سبقتها بقليل من السنوات «تونس» ... أما المغرب الاصى ... فقد تأخر عنهما تأخرا نسبيا يمثل خلافا فى الدرجة ـ لا فى المظهر الحضارى العام !!

ومن عناصر التكوين الثقافى التى لا يمكن تجاهل تأثيرها فى هذا الطور ـ زحف مذهب «مالك بن أنس» بدءا من التأثير الذى أحدثته «مدرسة القيروان» التونسية .... ومرورا بالقسم الغربى فى العالم الاسلامى كله ، وهو القسم الذى انتظم الاندلس وبلدان المغرب العربى ـ وعبورا الى القارة الافريقية ... حيث لا يزال مذهب مالك هو المذهب الغالب فى هذه البلاد (٢٩) .

والجدير بالذكر أن احتكاك المغرب بالاندلس وهجرة بعض الاندلسيين والافارقة والصقليين وغيرهم اليه ، واسهام هؤلاء فى الحركة الثقافية المغربية ... بما حملوه من علوم وآداب (٣٠) .

كل هذه العناصر ـ وربما غيرها ـ قد كونت الملامح الاساسية للشخصية الثقافية المغربية ... وساعدت على ابرازها فى صورة حضارية خاصة ذات اطار خاص ، كما أن هذه العناصر ـ فى الوقت نفسه ـ قد ساعدت على رقى الثقافة المغربية وازدهارها عامة (٣١) .

---

(٢٩) الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا للدكتور حسن محمود ج ١ ص ١٦٨ .
(٣٠) المغرب العربى لرابح بونار ص ٢٨٣ .
(٣١) مراكز الثقافة للكعاك ص ١٦ .

وقد انتشرت فى هذا العصر ظاهرة التنافس الثقافى ، وكان السباق قائما بين بلدان المشرق والمغرب والاندلس وعواصمها المختلفة ... المهدية وبجاية وفاس ، وتلمسان ، وسبتة ، وبلرم ، وبغداد ، والقاهرة ، والمدينة المنورة ، ومكة ... وغيرها .

وقد برزت كل مدينة من هذه المدن بلون خاص من العلوم أو الاداب غلب عليها ، واشتهرت به .

فالمهدية عاصمة البحوث الكيماوية ، وصقلية عاصمة الترجمة والنقل للعلوم العربية الى اللاتينية ، وبجاية عاصمة الرياضيات ، (ومن بجاية الجزائرية هذه أخذ الاوربيون الارقام العربية والجبر والمقابلة وهندسة أوقليدس) ! ! ! وهكذا الامر فى كل عاصمة اسلامية عربية ..

وقد ساعد على هذا التنافس وعطائه الحضارى ، ما كان يلتزم به الحكام من رعاية للملتصقين بهم من العلماء والادباء والشعراء ..

وعلى سبيل المثال . فان حكام المغرب الاوسط «الجزائر» خلال القرن الخامس والسادس للهجرة ، كانوا يرعون العلماء والشعراء ، ويغرونهم بالقدوم عليهم، ويجودون عليهم بالعطاء جودا حاتميا ... وكان أبرز حكام الجزائر على الاطلاق خلال القرن الخامس الهجرى «الناصر بن علناس الحمادى» ــ أطول الملوك باعا فى هذا المضمار ، فقد كان يؤمه الادباء ، ويقصده الشعراء ، فيغدق صلاته عليهم (٣٢) .

(٣٢) اعمال الاعلام للسان الدين بن الخطيب (الجزء الثالث) بتحقيق أحمد مختار العبادى ص ٩٦ ، وأنظر كتالوج بجاية ص ٥٨ .

وكان الامير «المنصور بن الناصر بن علناس» الذي خلف أبـاه الناصر على حكم الجزائر ... يكتب ويقول الشعر(٣٣) ويشجع الادبـاء والشعراء .

وكانت حركة الانتقال المتاحـة بيـن العواصـم الاسلامية (دون جوازات سفر أو تأشيرات دخول وخروج !!) .. كانت هذه الحركة الانتقالية التى غلب عليها طابع البعثات والرحلات العلمية ـ من أبرز العوامل فى اذكاء روح النشاط الثقافى .

وهى ظاهرة عامة فى العالم الاسلامى كلـه خـلال هـذه العصور بدرجات متفاوتة بين شعوب وحكومات هذا العالم . ولربما كانت هذه الظاهرة أقوى فى عالمى المغرب والاندلس عنها فى المشرق ، نظرا لشعور أبناء المشرق بأنهم المصدر والاصـل الذى يجب أن تشد اليه الرحال ويسعى اليه ... وأيضا لشعور المغاربة بمكانة اخوانهم «المشارقة» ـ أهـل الرسالة والرسول عليه الصلاة والسلام ـ فى الحضارة الاسلامية .

لقـد كانت حدود الاقاليم غير ذات أهمية .. وهى لـم تمثـل حاجـزا أو فاصـلا بيـن العلمـاء والادبـاء والكتـاب والشعراء (٣٤) ، بـل كانت الافكار فى العالم الاسلامى متصلة كـل الاتصال (٣٥) ، تعكس تقاربا ثقافيا يعتبر خصيصة كبرى من خصائص الحضارة الاسلامية فى عصور الازدهار .

وفى الموسوعات العلمية الكبرى لهذه القرون تأكيد واضح لبروز هذه الظاهرة ودورها الايجابى فى خلق وحدة فكرية فى

---

(٣٣) أعمال الاعلام ٩٧/٣ .
(٣٤) أنظر العربية ليوهان فك ص ١٦٨ .
(٣٥) أنظر بلاغة العرب للكعاك ٣١ .

فى العالم الاسلامى كله « فابن بسام » يفــرد القسم الرابــع من موسوعته (الذخيرة فى محاسن أهــل الجزيرة » (القسم الرابع من المجلد الاول) ــ لمــن هاجر الى الجزيرة «، أى الاندلس» من الافاق وطرأ عليها من شعراء الشام والعراق ويشتمل هــذا القسم على تراجم لهؤلاء الرحالــة الشعــراء فى القرن الخامس الهجرى ، وحتى وفاة ابن بسام سنة (٥٤٢هـ) قريبا من منتصف القرن السادس الهجرى ٠

والمقرى صاحب موسوعة «نفح الطيب» يورد لنـا نحوا من مائتين وخمسين ترجمة لمن رحلوا من الاندلس الى المشرق من العلماء والادباء والفقهاء ٠

ويورد لنــا ــ أيضا ــ قريبا مــن خمس وسبعين ترجمــة لمــن رحلوا من المشرق الى الاندلس ٠

وفى كتاب الصلة لابى القاسم خلف بن عبد الملك الشهير «بابن بشكوال» المتوفى سنة (٥٧٨هـ) نلحظ الظاهرة نفسها ؛ فاغلبية المترجم لهم رحلوا الى المشرق ، وكثير من المشارقــة زاروا الاندلس ، وقد الحقهم ابن بشكوال بقائمته التى اطلق عليهــا اســم «الغربــاء » ! !

وفى التكملة لابن الأبــار ، وفى «وفيات الأعيان» لابــن خلكان ، و «فوات الوفيات» للصفدى ، وفى «جذوة المقتبس» للحميدى ٠ وفى غيرها من المصادر ــ نستطيع التأكد من هــذه الظاهرة على نحو واضح ٠

ويذكر «ناصر خسرو» أنه رأى سنة (٤٤١هـ) ــ ١٠٤٩م

وهو بمصر – بعثة للبحث عن الاثار الفرعونية (جماعات من المطالبين) – قادته من الشام والمغرب (٣٦) ٠

كما أن المشاهير كانوا يتبوأون مركزهم الثقافى على امتداد العالم الاسلامى كله ٠٠ و «ناصر خسرو» يذكر لنا أن أفاضل الشام والمغرب والعراق – يقرون بأن «أبا العلاء المعرى» أديب عصرهم بلا منازع (٣٧) ٠

وحين يورد لنا «المقرى التلمسانى» حياة الازودى الحميدى صاحب «جذوة المقتبس» – المذكور آنفا – يخيل الينا أننا أمام مواطن عالمى من نوع غريب ، فقد عاش وطلب العلم فى كل من الاندلس ، ومصر ، ودمشق ، ومكة المكرمة ، وواسط وبغداد ، وغيرها (٣٨) ! !

فنحن – بايجاز شديد – أمام ظاهرة يمكن أن نسميها «بالوحدة الحضارية» حتى وان كان ثمة تفكك سياسى منتشر ٠

وهذه الوحدة الحضارية صهرت المغرب العربى فى بوتقتها ولم تلبث أن جعلت انتماءه للحضارة الاسلامية انتماء وجود وكيان ومصير ٠

---

(٣٦) «سفر نامه» لناصر خسرو ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ص ٦٩ ٠

(٣٧) سفر نامه ص ١١ ٠

(٣٨) نفح الطيب للمقرى ٣١٤/٢ بتحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد ٠

طـــرق التثقيـف :

اعتمدت الثقافة فى المغرب على الالتحام الحضارى بالقبائل العربية وبالمسلمين الفاتحين ـ وهذه قضية بديهية ـ لكنها مع ذلك قـد اعتمدت ـ خلال هذه العصور ـ على طـرق تثقيفية محدودة ، لهـا مدارسها ومشايخها وأساليبها ٠

ومعلوم ـ من روح المسيرة الحضارية الاسلامية العامة ـ أن «المسجد» كان يقـوم بدور كبير تعليمى تثقيفى هـام ، بحيث انه لم يكن ثمة مسجد فى مدينة خاليا من المدرسين(٣٩) وقـد أطلق عليه فى المغرب العربى اسـم «المسيد» ، وكثيـرا ما كان هذا «المسيد» علما على «ملحق» يلتصق بالمسجد ٠٠٠ يفـرد للناحية التعليمية ٠

ـ وقد تطور هذا «المسيد» فى القرن الخامس الهجرى ، فاستقل بنفسه عن المسجد ، وصـار كيانا بذاته من حيث البناء والهدف (٤٠) ، لكن هـذا التطور لـم يمنـع المسجد مـن أن يكون محل تعليـم ، الا أنـه ارتفع طبقـة فصـار بمثابة دار «للتعليم الثانوى» أو «للتعليم العالى» ٠

ـ والى جانب «المسيـد» و «المسجد» وجدت «الزاوية» فقد كانت الزوايا كثيرة جدا بالمغرب العربى بين كبيرة وصغيرة وهى عبارة عن مجموعة من المبانى الفاخرة الكثيرة يتوسطها «ضريح الشيخ» (! ! !) المؤسس ، الذى كـان عبارة عـن

---

(٣٩) أنظر كتاب الجزائر لتوفيق المدنى ص ٨١ وكتالوج بجايـة ص ٥٨ ٠

(٤٠) أنظر مراكز الثقافة للكعاك ٧١ ، ٧٢ ٠

قبـة كبيرة مفروشة بالزرابى (السجاجيد) ، لحلوءة بالمباخر والمجامر والاعلام (٤١) .

- وكانت الكتاتيب أشهر أنواع التعليم الابتدائى ، ويبدو أنها قريبة -فى تخصصها - من عمل «المسيد» وان كانت تتميز بملكيتها الخاصة .

ويبـدو أن ما عـرف فى بلـدان المغرب العربى باسـم «الشريعة» كان يقـوم أحيانا مكان «الكتاب» . وهى «خيمـة مدرسية عنـد البدو(٤٢)» الى جانب كونه مصلى تقـام فيـه «الاعياد» وربما صلوات الجمع ، ومن المحتمل أن «الشريعة» كانت محل تعليم البدو فى مقابل «المسيد» الذى كان محل تعليم الحضرى ، وهى تنتقل بانتقال الحى وفق ضرورة الانتجاع ، أو دواعى تزاحم القبائل ، ويتعلم فيها الاحداث من الجنسين.

وفى المدن المغربية الكبرى كـان يوجد لـون من التعليـم العالى (الجامعى) ، وعلى سبيل المثال فقد أنشأ الناصر بن علناس فى بجاية (الجزائرية) معهـد «سيدى التواتى» الـذى يحتوى على ثلاثة آلاف طالب ، وتدرس فيه كل المواد بما فيها العلوم الفلكيـة ...

وخلال مؤتمر علمى ألقت «طالبة» من هذه الجامعة ، محاضرة دامت ثلاثة أيـام حول بروج الشمس ... فقـد كـان

---

(٤١) المكان السابق . (ونحن . بالطبع ننكـر هـذه القبورية المبتدعـة) .

(٤٢) الاسلام فى المغرب والاندلس ص٨٩ ليفى بروفنسال (حاشية) .

مرخصا للفتيات ـ فى حدود الشريعة الاسلامية ـ ليس بالتعليم فقط ، بل بتقديم رسائل علمية عليا « أطروحات » باسم الجامعة (٤٣) ٠٠

ولقد عرفت فى المغرب العربى منزلة « الاختصاص » الاكاديمى ٠٠٠ كما عرفت المكتبات العامة ، وكان بجامع المنار الموجود بالقلعة فى الجزائر مكتبة مليئة بالكتب المحمولة من أقطار المغرب ، والمنقولة عن تدريس أساتذة جامعات المغرب المختلفة وخلال حكم العزيز بن الناصر بن علناس للمغرب الاوسط كان يحاضر فى جامعة سيدى التواتى هذه علماء من أسبانيا ومن افريقيا والشرق (٤٤) ٠

لقد ازدهرت الحياة العلمية فى المغرب العربى ازدهارا كبيرا تدلنا عليه هذه المكانة التى احتلتها عواصم المغرب الحضارية آن ذاك «كفاس والقيروان وتلمسان وبجاية وتونس» وغيرها ٠ وقد برز فى هذه العواصم العلماء والفقهاء والشعراء والمؤرخون والاطباء والرياضيون وغيرهم من طوائف الاشتغال بفنون العلم المتعددة ٠

وقد اعتذر أبو العباس الغبرينى صاحب كتاب (عنوان الدراية فى علماء المائة ببجاية) بعد أن أورد مجموعة كبيرة من العلماء الذين عاشوا فى القرن السادس ٠٠ اعتذر بقوله :

« وقد بقى خلق كثير من أهل المائة السادسة ممن لهم

---

(٤٣) انظر كتالوج بجاية ص ٥٨ باشراف الدكتور بورييه عميد كلية الاداب بالجزائر سابقا ٠

(٤٤) كتالوج بجاية ٦٧ ٠

جلال وكمال ، ولكن شرط الكتاب ـ اى التزامه بالقرن السابع الهجرى ـ منع من ذكرهم » ٠

ويتابع الغبرينى شهادته فيقول :

«وقد مضى من قول الشيخ ابى على المسيلى قوله : أدركت ببجاية وحدها ما ينيف على تسعين مفتيا ، ما منهم من يعرفنى ، واذا كان المفتون ـ فى بجاية وحدها ـ تسعين ، فكم يكون فى بجاية من المحدثين ومن النحاة والادباء وغيرهم، ممن تقدم عصرهم ممن لم يدركه ٠٠٠ لقد كان الناس على اجتهاد ، وكان الامراء لاهل العلم على ما يراد (٤٥) ٠

وقد أورد الغبرينى ما ينيف على مائة وثلاثين ترجمة، وفى تصورنا أن هذا الثراء الفكرى الذى شهدته عاصمة الجزائر دليل ناصع على مدى الثراء الذى تحقق فى العواصم المغربية الاخرى كالقيروان وفاس ، وبخاصة وأن بجاية لم تكن أعلا قدرا ٠٠٠ ولا أشهر ذكرا من عواصم المغرب الاخرى ٠

العلوم الاسلامية خلال القرنين الخامس والسادس :

تصدر المذهب المالكى المذاهب والعقائد الموجودة فى المغرب العربى على المستوى الشعبى والرسمى ، وبالتالى فقد أصبح هذا المذهب الفقهى مجال نشاط «الفروع» فى بلدان المغرب، ومصدر الاحكام والتشريع فيها ٠

وقد لقيت علوم القرآن والسنة ، من تفسير وحديث وقراءات وفقه ، اهتمام الدول المغربية وجمهرة المسلمين ٠

(٤٥) عنوان الدراية للغبرينى ص ٣٢ ٠

والجدير بالذكر أن المكانة التى تمتع بها المذهب المالكى فى المغرب ـ خلال هذين القرنين اللذين كـان التأثير الشيعى قـد اختفى فيهما بعد رحيل الفاطميين الى مصر ـ هذه المكانة قـد أضفت لونـا من الثبـات الفكرى والعاطفى فى المغرب ، وتحقق ـ على المستوى الفكرى ـ نوع من الوحدة لـم يتوفـر لبلدان المشرق المعاصرة التى كان الصراع قائمـا فيها على أشده بيـن السنـة والروافض ٠

وقد اتجهت الحياة الدينية الى دراسة الاحديث المجموعة فى كتب الفروع وفقا لمدرسة الحديث التى كان امامها «مالك» امـام أهـل الحديث بالمدينـة ، وكانت كتب المالكية الشهيرة كموطأ الامـام مـالك ، والتلقين لعبـد الوهـاب البغدادى ، والواضحة لابن حبيب ، والعتبية للعتبى (٤٦) ، «والاسدية» التى جمعها أسـد بـن الفرات (٤٧) أثناء تلمذته على «ابـن القاسم» امام المالكية بمصر «والمدونة» ، أو «المختلطة» التى جمعها فى فقه المالكية أبو سعيد سحنون بن سعيد ولقيت مـن المغاربة أكبـر اهتمـام ٠٠٠

كانت هـذه الكتب الذائعة أهـم المراجع الاصلية للفقـه المالكى الـذى تـدور حولـه سائـر الاجتهادات فى المغـرب العربى (٤٨) ٠

---

(٤٦) مقدمة ابن خلدون (٣) ص ١٠٢٢ ٠

(٤٧) الحلة السيراء (٢) ص ٣٨١ ٠

(٤٨) أنظر مقدمة ابن خلدون (٣) ص ١٠٢٣ ، وأنظر قيام دولة المرابطين للدكتور حسن محمود ٩١ ، ٩٢ ٠

والحق أن المغاربة لم يقفوا عند حد الاتباع «بل ظهر بينهم بافريقيا طائفة من أعلام الفقه مجتهدون فى المذهب الفوا فيه وأوضحوا مسائله ، كابن أشرس والكتامى والبرادعى وغيرهم (٤٩) ، ومن هؤلاء من كان ينتقد مدونة سحنون .

ومن الظواهر الجديرة بالذكر فى هذا المقام أن هذه العلوم التى تسمى بالعلوم النقلية كانت مختلطة ممتزجة متكاملة ، ولذا فقد كان التخصص نادرا فيها ، وكان العلماء والفقهاء على دراية وعلم بأكثرها ،مع وجود اشتهار عالم ما بفرع أكثر من شهرته فى الفروع الاخرى .

وبالاضافة الى الثبات الفكرى الذى أضفاه الى حد كبير مذهب مالك فان المغاربة لم يكونوا ميالين كثيرا الى الجدال واللجج ، وبالتالى لم يحظ علم الكلام (التوحيد) من اهتمامهم بالمكانة التى حظى بها فى الشرق ، أو بالمكانة التى حظى بها علم الفروع أو علم القراءات أو التفسير . وكان جمهور مفسرى المغرب يسيرون على المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته ـ وفق اتجاه الامام مالك ـ متجنبين طريقة التأويل التى التزمها المعتزلة والشيعة (٥٠) .

ـ ومن أبرز العلماء المشهورين فى العلوم الاسلامية فى المغرب العربى فى هذين القرنين « الشيخ محرز بن خلف بن رزين التونسى » الذى يرتفع نسبه ـ فيما يقال ـ الى الخليفة الراشدى أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

---

(٤٩) ارجع لابن فرحون الديباج المذهب طبع مصر ص ١١٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٥٠) أنظر الدولة الموحدية بالمغرب ص ٢٩٦ .

وقد توفى محرز سنة ٤١٣هـ ودفن بداره بناحية باب السويقة فى تونس (٥١) . وكان قد بدأ حياته «معلما للقرآن الكريم» ومؤدبا ببلدتى اريانة والمرسى .. ثم انتقل الى مدينة تونس يقرىء القرآن الكريم ويعلم الفقه من رسالة « ابن ابى زيد » ويدرس الحديث الشريف (٥٢) .

وتبعا لما اكتسبه الشيخ محرز بن خلف من سمعة طيبة وتقدير واسع ، وماأحرزه من شهرة كبيرة لقب بسلطان المدينة وكان مقصد الناس فى الفتيا وفى حل مشكلاتهم عند أولى الامر

بـل انـه من ابرز قادة الثورة على الشيعة فى عهد الاميـر المعز بـن باديس .

ـ ومن المشهورين أيضا مروان بن على الاسدى المعروف بالبونى (نسبة الى مدينة بونة الجزائرية) الذى عرف بالصلاح والتقوى والعفاف ، وله كتاب فى شرح الموطا كمـا عرفت لـه جهود فى علوم الحديث ومات فى حدود سنة ٤٤٠هـ (٥٣) .

ـ ومن هؤلاء العلماء عبـد الحميد الصائغ المتوفى سنـة ٣٨٦هـ جنوبى سوسة ...

وقـد ولـد بالقيروان ونشا بهـا وتلقى مختلف العلـوم حتى صار عالمـا نبيلا واصوليا محققا وفقيها جيد الفقه ، تقلد

---

(٥١) انظر الدولة الصنهاجية لاحمد بن عامر ص ٨٧ ط الدار التونسية للنشر ١٩٧٢ .

(٥٢) المرجع السابق ص ٨٨ .

(٥٣) انظر ترتيب المدارك للقاضى عياض (٣) ص ٧١٩ وجذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ٨٩٨ وبغيـة الملتمس للضبى تصوير مكتبة المثنى ص ٤٤٦ .

خطة الافتاء بالمهدية (عاصمة بنى زيري الشهيرة) الى أن استقلت سوسة ، فوقع القبض عليه مع جماعة منها وعوقب بالضرب ، وبغرامة قدرها خمسمائة دينار دفعها من ثمن بيع كتبه (٥٤) .

– ومن علماء العصر كذلك «محمد بن على عمر» الشهير باسم الامام المازرى المتوفى سنة ٥٣٦هـ . وقد ملاء وطابه من مختلف العلوم حتى أصبح فقيها ومحدثا وراوية وطبيبا ومجتهدا ، وصار يفزع اليه فى الطب كما يفزع اليه فى الفقه ، واشتهر بمؤلفاته العديدة(٥٥) المذكورة فى كتب الفهارس والتى لم يصلنا شىء منها .

– ومن علماء العصر البارزين موسى بن حماد الصنهاجى الذى كان فقيها حافظا من جلة القضاة ، وكان راوية لابى الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوى وغيره ، وقد توفى سنة ٥٣٥هـ بمراكش (٥٦) .

– ومن هؤلاء الفقهاء ابراهيم بن حماد وموسى بن حجار بن أبى بكر الاشيرى ، وحجاج بن يوسف الهوارى من نواحى بجاية (ت ٤٧٢ هـ) ، وأبو بكر بن عتيق من أهل القلعة (توفى ٥٥٣هـ) ، وعبد الله بن محمد بن عيسى من مدينة تاهرت عاصمة دولة بنى رستم ، وأحمد بن خصيب الانصارى المتوفى فى حدود سنة ٤٥٠هـ ، ويوسف بن محمد بن يوسف

(٥٤) أنظر أحمد بن عامر الدولة الصنهاجية ص ٨٦ .
(٥٥) المرجع السابق ص ٨٧ .
(٥٦) ابن بشكوال الصلة (٢) ص ٦١٤ .

أبــو الفضل النحوى ــ الذى كان بمثابة مدرسة لهــا اتجاهها فى فقه الدين وكان اتجاهه امتدادا للامام أبى حامد الغزالى ومنهم أيضا محمد بن على بن جعفر المعروف بابن الرمامة ــ تلميذ ابن النحوى السابق الذكر وصاحب كتاب تسهيل المطلب فى تحصيل المذهب ، وكتاب التقصى عن فوائد التقصى ، وكتاب التبيين فى شرح التلقين وغيرها (٥٧) ٠

ــ ويعتبر أبو القاسم يوسف البكرى المولود ببسكرة سنــة ٤٠٣هـ من ابرز علماء القراءات فى المغرب كله ، وقد قال عنه امام القراء «ابن الجزرى» : «لا أعلم أحدا فى هذه الامة رحل فى القراءات رحلتــه ، ولا قى مــن لقى من الشيوخ» ٠ وقــد ترك آثارا كثيرة نعرف منهاكتاب «الكامل فى القراءات» وكتابى «الوجيز والهادى» ٠

وكما كان البكرى اماما فى القراءات ، كان أبو محمد عبد الله الاشيرى المتوفى سنة ٥٦١هـ اماما مبرزا فى الحديث يتسابق الناس الى الاخذ عنه والتشرف بالانتساب اليــه ، وقــد خــدم دولــة الموحدين ، ومــن أشهــر كتبــه تهذيــب الاشتقاق لابى العباس المبرد (٥٨) ٠

ونحن لا نشك فى أن هنــاك كثيرين انتشروا على أرض المغرب الفسيح ، وفى عواصمه الحضارية الكبرى من طرابلس الى طنجة ــ يخدمون علوم الدين ويرفعون لواءها علما وعقيدة ووظيفــة ورسالــة ٠

---

(٥٧) راجع حول هؤلاء نفح الطيب ، والصلة ، والتكملة والبستان لابن أبى مريم ٠ وغيرها ٠

(٥٨) أنظر المغرب العربى ــ رابح بونار ٢٧٢،٢٦٨ ٠

بيد أننا نجد انفسنا مضطرين الى القول بأن كثيرا من هؤلاء كانوا مقلين في انتاجهم الفكرى المدون ، يعتمدون على تكوين التلاميذ والتعليم الشفهى . ويكتفى كثير منهم بالرواية عن غيره ، ولعل هذا هو الذى جعل من الصعوبة بمكان تتبع أكثر أنشطتهم ولا سيما نتاجهم الفكرى .

لقد كانوا فيما نعتقد يعطون الكلمة المكتوبة خطورة كبيرة ، وبالتالي كانوا يتحفظون كثيرا قبل اقدامهم عليها ، ولعل أكبر أسباب هذا السلوك ، أنهم كانوا يشعرون بأن حسبهم من الفخر أن يكونوا أتباعا وتلامذة لعلماء المشرق ، مهد الدين ومنبع حضارة الاسلام .

الآداب وعلوم اللغة

كان لفروع الادب من نثر وشعر وما يندرج تحتهما ، ولعلوم اللغة ، مكانة هامة فى المغرب العربى خلال هذين القرنين .

وكان الادب مناط عناية واحترام طبقات المجتمع كلها . الملوك والوزراء ورجال الدولة والعلماء والطبقات الاخري .. كل هؤلاء كان الادب ركنا قويا من أركان ثقافتهم .

وكانت العربية الفصحى المصقلة بلسان العرب النازحين وبلسان قبائل بنى هلال وبنى سليم لغة الثقافة والفكر وإن كان من الضرورى أن نتوقع أن تكون اللهجة الاقليمية قد أكسبتها لونا محليا ذا طابع خاص (٥٩) . أما البربرية فانها لم تمت موتا كاملا خلال هذا العصر ، بل بقيت ـ

(٥٩) انظر العربية ليوهان فك ص ١٦٧ .

الى حد ما ـ معروفة متداولة ، ويبدو أن جزءا كبيرا منهـا كان يسيطر على لغة قصور الحكم التى لـم ينس أصحابها بعد انهـم برابرة يحكمون شعوبا وبلادا بربرية الاصـل ، لكـن ـ مـع ذلك ـ نجحت العربية فى أن تكون اللغة الحيـة القويـة السهلة المطواعة للتعبير عـن الفكـر العلمى ، وفرضت نفسهـا بحيث أصبحت لغة السياسة والتخاطب الادبى (٦٠) ٠

ـ ويقف فى قمـة أدباء هذا العصر «ابراهيم بـن عـلى الحصرى» المتوفى بالقيروان فى سن الثمانين سنة ٤٥٣هـ ٠

وقـد نشـا وتعلم بالقيروان حتى تبـغ فى الادب وفنون اللسان ، وصار أديبـا فـذا يجتمع الشبان بناديه ويتتلمذون عليه ويأخذون عنه ٠ وقـد ترك مؤلفات عديدة أشهرها :

١ ـ ديـوان شعـره ٠

٢ ـ زهـر الاداب ٠

٣ ـ المصون فى سـر الهوى المكنون ٠

٤ ـ جمع الجواهر فى الملح والنوادر (٦١) ٠

ـ أما «الحسن بن رشيق» فيعتبره بعض مؤرخى الاداب بالمغرب اشهر واشعر شعراء هذا العصر ٠ وقـد ولـد بمدينـة المسيلـة بالمغرب الاوسط (الجزائر) حيث نشـا وتلقى ثقافتـه الاولى ثـم انتقـل الى القيروان حيث اتـم ثقافته العاليـة ، واشبع نهمـه من مناهلها الادبية ٠ وقـد جلب الانظار اليه ، وقربه الامير المعز بن باديس والحقه بديوانه ، فاكتسب عنده

---

(٦٠) فيليب حتى تاريخ العرب (مطول) جـ٢ ص٣٩٢ ٠

(٦١) انظر احمد بن عامر الدولة الصنهاجية ٨١ـ٨٢ ٠

المكانة الاولى الى أن زحف الاعراب على القيروان فدمروها سنة ٤٤١هـ ، فارتحل الى صقلية حيث توفى سنة ٤٥٣ هـ ، ومن مؤلفاته التى يعدها المغاربة ثروة عظيمة فى مجالات اللغة والنقد والادب :

١ ــ الانموذج .
٢ ــ الشذور .
٣ ــ العمدة .
٤ ــ أنموذج الزمان فى شعراء القيروان .
٥ ــ قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب (٦٢) .

ــ ومن أدباء المغرب المشهورين فى هذا العصر ايضا (ابو القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بابن القالمى ــ نسبة الى مدينة قالم) وقد أورد له العماد الاصفهانى صاحب كتاب خريدة القصر ــ رسالة طويلة (٦٣) . ويرجح الاستاذ بونار أن ابن القالمى هذا كان حيا فى النصف الاول من القرن السادس الهجرى وأنه خدم الحماديين والموحدين ، وهو ترجيح نوافقه عليه ، لان ابن القالمى كان من أبرز كتاب عبد المؤمن ابن على (٦٤) الموحدى المؤسس السياسى للدولة الموحدية .

ــ ومن شعراء العصر المبرزين ابو حفص عمر بن فلفول الذى كانت له اليد الطولى ، فى الانشاء الدال على ابداعه، وقد أورد له العماد الاصفهانى شعرا كثيرا .

---

(٦٢) أنظر المرجع السابق ٨٢ وما بعدها .
(٦٣) أنظر الخريدة ١٨١/١ .
(٦٤) المعجب لعبد الواحد المراكشى ٢٢٦و٣١٦ .

ويعتبر يوسف الورجلانى المولود بورقلة - من بلاد المغرب الاوسط - سنة (٥٠٠هـ) واحدا من أبرز أعلام هذا العهد . وقد اخذ العلم عن شيوخ بلدته ورقله ، ثم ارتحل الى الاندلس والمشرق وأخذ عن أعلامها ، ثم عاد الى ورقلة واعتكف نحو سبعة أعوام ، يكتب بمنزله، وقد لقب «بالجاحظ» لكثرة كتبه . وقد ترك كتبا جليلة أهمها : فتوح المغرب ، وتفسير القرآن فى نحو سبعة أجزاء ، والعدل والانصاف فى أصول الفقه ، والقصيدة الحجازية فى نحو خمسين وثلاثمائة بيت ، وكتاب مروج الذهب فى الفلسفة ، وكتاب الدليل لاهل العقول الذى يشبه دائرة معارف صغيرة ، وقد طبع هذا الكتاب الاخير سنة ١٣٠٦هـ (٦٥) .

- وينضم الي شعراء المغرب المبرزين فى هذا العصر أيضا محمد بن شرف المولود بالقيروان سنة ٣٩٠هـ والمتوفى باشبيلية سنة ٤٩٠هـ . وقد ترك عدة مؤلفات قيمة منها «أعلام الكلام» وهو مجموعة طرائف أدبية ، «ورسائل الانتقاد» وهو أحاديث مختلفة الالوان ، و «أبكار الافكار» ويحتوى علي انتاجه شعرا ونثرا (٦٦) .

ولعله ليس من باب المبالغة ان نقول : ان الشاعر الكبير «ابن حمد يس الصقلي» هو امام شعراء هذا العصر ، فى رأينا ورأى أكثر مؤرخى الادب من المغاربة والمشارقة على السواء .

وقد ولد عبد الجبار بن حمديس فى مدينة سرقوسة الصقلية سنة ٤٤٧هـ ، وبهذه المدينة نشأ وتعلم واكتسب ثقافته

---

(٦٥) الدكتور ابراهيم العدوى المجتمع المغربى ٣٠٥ .
(٦٦) الدولة الصنهاجية ٨٥ .

الادبية الاولى فى عهد الحكومة الكلبية الذى بلغت فيه صقلية أوج مجدها ، ثم ارتحل مفارقا وطنه نتيجة احتلال النورمان لمدينة «بالرم» الصقلية الكبرى ، فاتجه الى الاندلس سنة٤٧١هـ مارا بتونس والجزائر والمغرب الاقصى ، واتصل حبلـه بعـد وصوله الى اشبيلية «بالمعتمد بـن عباد» فعاش فى كنفه عيشة رغـد حتى دارت الايام دورتها بالمعتمد بـن عبـاد على يـد زعيـم المرابطين «يوسف بن تاشفين» ، الـذى زحزح المعتمد عن ملكه ووحد الاندلس تحت راية المرابطين ، وأنقذها مـن النصارى وأذاق المعتمد وأمثاله من ملوك الطوائف مر العيش، جزاء عبثهم ولهوهم وعـدم تقديرهم للمسئولية التاريخية فى وجه النصارى المتربصين الزاحفين ...

عند ذلك ــ وبعـد أن فقـد ابن‌حمديس صديقه المعتمد ــ غادر الاندلس ، مرتحلا الى البلاد التونسية ، حيث قضى بها مدة ، ثم انتقل الى بجاية العاصمة الـكبرى للجزائر آن ذاك، فقضى بقية حياته فاقد البصر يتوكأ على عصا لا تفارقه الى أن توفى سنة ٥٢٧هـ عن سـن تبلغ الثمانين سنة (٦٧) .

وفي الدراسات اللغوية نبغ فى هذه الفترة الحسن بن على التيهارتى المتوفى سنة ٥٠١ هـ والجزولى الـذى كان أستاذا لابن معطى ، الذى أشاد بسبقه ابن مالك « صاحب الالفيـة » حين قال عنـه :

وهو بسبق حائز تفضيلا مستوجب ثنـائى الجميلا

(٦٧) انظر الدولة الصنهاجية ــ بتصرف ــ ص ٩٥ومـا بعدها . وكذلك «ابن حمديس الصقلى» رسالة ماجستير بـدار العلوم للدكتور سعد شلبى .

ومن اللغويين المعروفين كـذلك «عمـارة بن يحى » من مدينة بجاية بالجزائر ٠

ـ ولا شك لدينا فىوجود كثير غير هؤلاء ، لم يتح للتاريخ أن يكتب عنهم ، أو أنهم لكثرة رحـلاتهم طلبا للعلم فى المشرق أو الاندلس قـد اندثرت معالمهم فى بلاد الغربة ٠

وعلى الرغم من أننا آثرنا ألا نقدم نماذج نثرية أو شعرية لمن ذكرناهم ، لان هذا قـد يخرج بنـا عن جوهر الموضوع ، مضافا الى ذلك أن الكتب التى تحدثت عن هـذا العصر كنفح الطيب للمقرى ، وعنوان الدراية للغبرينى ، وخريدة القصـر للعماد الاصفهانى ، والبستان لابن مريم ـ موجودة مطبوعة تغنينا عن الاستطراد الى ذكر هذه النماذج ٠٠٠

على الرغم من هـذا فاننـا نستطيع القول ـ من واقـع مطالعتنا لنماذج منهذا الادب ـ ان أدب المغرب فى هذا العصر أدب تقليدى يلتزم السجع فى النثـر ، والديباجة التقليدية فى الشعر ، مـن رصانة لفظيـة ، الى محسنات بديعيـة ، الى موضوعات تكـاد تكون هى نفسها المعروفة فى المشرق ، ويغلب على أكثرها المدح فى الشعر والكتابة الديوانية فى النثر ٠

لقد كان المغاربة فى هذا العصر ـ كما ذكرنا من قبل ـ يعيشون مرحلة التقليد والاتباع وليس الابتكار والابتداع ٠

العلـوم الاجتماعية والتجريبيـة

على الرغـم مـن أن القرنين الخامس والسادس للهجرة حفـلا بكثير مـن العلمـاء الرحالـة والجغرافيين الاندلسيين والمغاربة ـ الا أن تركيز المغاربة الاول كان يتجـه الى علـوم

الدين واللغة ـ بالاضافة الى أن الظروف السياسية المتقلبة لم تتح الابداع المناسب فى مجال العلوم الاجتماعية والتجريبية .

وأغلب الظن أن أكثر رحالة وجغرافيى هذا العصر قد مروا بالمغرب وعاشوا فيه ، لان كتابة أكثرهم عنه ـ كالبكرى والادريسى ـ كانت كتابة تجريب ومعاينة ، وليس مجرد أخبار ونقول .

ولربما كانت دراسة التاريخ ، ولا سيما التاريخ البربرى عملا أحس البربر بحرج منه ، ازاء اقبالهم على الحضارة الجديدة التى أحبوها ... وأحبوا عقيدتها ولغتها وتراثها وتاريخها ... واستغنوا بذلك عن تاريخهم الهابط ، كما استغنوا من قبل عن لغتهم البربرية ، وعن دينهم الوثنى .

أما الفلسفة ، فلم أجد فيما رجعت اليه من مصادر ، أثرا ذا قيمة لها ، وتفسير ذلك فيما أرى بغض البربر للنواحى العقلية الجدلية ، كرد فعل للتطرف الجدلى الذى عانوا منه الكثير طيلة خضوعهم للشيعة الفاطميين ، كما أن مذهب مالك بن أنس ـ رضى الله عنه ـ وهو المذهب الذى ساد المغرب العربى ـ يعتمد على المأثور بالدرجة الاولى ، وقلما يلجأ الى «المعقول» الا فى غياب «المنقول» الصحيح حسب اجتهاده . وبالتالى كان لمنهجه هذا تأثير فى البعد عن الفلسفة .

ـ ومع ذلك ، فقد وصلتنا أسماء بعض الاعلام الذين اهتموا بالتاريخ كأبى محمد القلعى الذى كان يدرس بالجامع فى حاضرة بجاية بالمغرب الاوسط ، ومحمد ابن ميمون(٦٨)

---

(٦٨) عثمان الكعاك : بلاغة العرب ٢٨ .

ويوسف الورجلانى المولود سنة ٥٠٠ هـ وصاحب كتاب فتوح المغرب (٦٩) ٠

ـ ويحكى «ابن الابار» أن العزيز بالله بن المنصور بن الناصر بن علناس الصنهاجى ـ الذى حكم المغرب الاوسط على مشارف القرن السادس الهجرى ـ قد ألف له حماد بن ابراهيم بن ابى يوسف المخزومى كتابا فى التاريخ (٧٠) ٠

ومن المؤرخين المشهورين أيضا «أبو عبد الله محمد بن على الصنهاجى مؤلف كتاب «النبذ المحتاجة فى أخبار صنهاجة» الذى يمثل أكبر كتاب فى التاريخ الصنهاجى ٠ وله أيضا كتاب أخبار ملوك بنى عبيد ، وكتاب « الاعلام بفوائد الاحكام »(٧١) ٠

أما العلوم التجريبية ، فقد حظيت بقسط من الاهتمام فى المغرب العربى خلال هذين القرنين ٠

ومن الملحوظ أن أصحاب هذه العلوم لم يكونوا منفصلين انفصالا تاما عن العلوم الدينية والادبية واللغوية ، على الرغم من وجود ظاهرة التخصص فى هذا العصر ٠

ولهذا فنحن نجد كثيرا من أقطاب هذه العلوم يشتهرون الى جانب شهرتهم فى هذه العلوم ـ بالبروز فى نواح أخرى كثيرة كالشعر والفقه والنحو وما الى ذلك ٠

---

(٦٩) د٠ ابراهيم العدوى : المجتمع المغربى ٣٠٥ ٠

(٧٠) أنظر التكملة لابن الابار ١٢٧/١ ٠

(٧١) أنظر أعمال الاعلام ٩٤/٣ ، ٩٥ (حاشية) وانظر المكتبة الصقلية لامارى ٣١٧ ٠

وقد عرف فى هذا العصر كثير من المهتمين بهذه الدراسات كابن أبى المليح الطبيب ، الذى كان طبيبا ماهرا (٧٢) . وابن النباهى البجائى المتوفى فى أواخر القرن الخامس ، الذى كان طبيبا ، مواظبا على علاج المرضى ، ملما بالعلوم الطبيعية ومشاركا فى سائر العلوم الفلسفية (٧٣) وعمر بن البيدوخ أبو جعفر القلعى ، الذى كان خبيرا فى الادوية المركبة والمفردة وعارفا بالامراض وعلاجها ، وقد ترك بعض الكتب مثل : «حواش على كتاب القانون» لابن سينا ، وشرح الفضول «لابو قراط» فى «أرجوزة» ، وذخيرة الالباب فى الباءة . وكان القلعى من مواليد القلعة ، لكنه طوف فى الافاق ، ومات بدمشق سنة ٥٧٥ هـ (٧٤) .

ومن هؤلاء البارزين محمد بن أبى بكر المنصور القلعى، الذى نبغ فى الطب والرياضيات والحساب وعلم الفرائض .

ومما لا شك فيه أن حركة البناء والتعمير التى انتشرت فى عواصم المغرب العربى قد احتاجت الى كثير من المهندسين ويعتبر الابداع الهندسى فى فاس والقيروان وبجاية وتلمسان خير شاهد على تقدم المغاربة فى فن الهندسة المعمارية .

وقد اشتهر فى علم الفلك على بن أبى الرجال التاهرتى المتوفى سنة ٤٣٢هـ ، وقد عرف ابن أبى الرجال بآثاره العلمية الكثيرة ، لا سيما كتاب « البارع فى أحكام النجوم »

---

(٧٢) الخريدة ١٨٤ .
(٧٣) المغرب العربى لرابح يونار ٢٧٧ .
(٧٤) المرجع السابق ٢٨٠

الـذى نقــل الى الاسبانية واللاتينية ، وكتاب « أرجــوزة فى الاحكام الفلكيــة » (٧٥) .

ومن المعروف أن المرابطين حققوا وحدة المغرب الاقصى وموريتانيا ،كما نجح المرابطون فى تحقيق وحدة العدوتين المغرب والاندلس ، بــل نجحوا فى تحقيق وحدة المغرب الى تلمسان فانفتح الطريق الى تبادل التأثيرات مع فنون وصناعات أبنــاء عمومتهم الصنهاجيين بأراضى بنى زيرى وبنى حماد (شرقا) كــل ذلك كــان بالاضافة الى استقرار الامــن وتوفــر الرفاهية وقيــام العــدل ونشاط وظيفــة الحسبــة التى شملت فى عصــر المرابطين القيــام بمهام التعديل والاضافة اللازمــة فى المساجد والمبانى العامة على غرار ما فعل قاضى فاس سنة ٥٢٩هـ من زيادة مسجدها الجامع وكذلك زيادة القاضى عياض فى جامــع سبتــة مــن جهتــه الغربية .

وفيما يتعلق بالعمارة والفن كان للمرابطين فضل كبيــر فى قيام تجمعات عمرانية هامــة مثــل تلمسان ومراكش كمــا فتحوا طريق التلاقح الفنى شرقا وشمالا .

فمن ناحية الشرق كانت الجسور قائمة فى شكل تجمعات عمرانية لنقل وتبادل التأثيرات المعمارية والفنية بيــن المغرب الاقصى ودول المشرق العربى عن طريق بجاية وقلعة بنى حماد واشير وجزائر بنى مزغنــة ومليانة والمديــة وغيرها . وكانت تلك الجسور تسمح بعبور الروافد الفكرية والفنية .

فابتداء من تفوق المرابطين الصنهاجيين السياسى والعسكرى منذ فتح سجلماسة سنة ٤٤٧هـ وفتح أغمات وتملك تامسنا سنة

---

(٧٥) مجلة الاصالة عدد يناير ١٩٧٢ مقال لرابح يونار.

٤٤٩هـ وبداية حكم يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٣ وتأسيس مدينة مراكش سنة ٤٥٤هـ ودخول المرابطين الاخير والنهائي لمدينة فاس قاعـدة المغرب التاريخية سنـة ٤٦٢هـ والى نهايـة أيـام المرابطين على يـد الموحدين سنة ٥٣٩هـ كانت العلاقات قائمة مـدا وجزرا مـع المغربين الادنى والاوسط (٧٦) .

وعندما خلع المعـز بن باديس دعوة الشيعـة الفاطميين وخطب للعباسيين وانحـاز الى مـذهب الامـام مالك أرسـل المستنصر بالله الفاطمي عرب بنى هلال وسليم فى حملة تأديبية وبهذا أيضا لـم تنقطع التيارات والاتصالات والمؤثرات الفكرية والفنيـة بين شقى العالم الاسلامى بالمشرق والمغرب .

أما بالنسبة الى الاندلس ، فان لـم يكن للمرابطين فضل عـلى الحضارة الاسلامية الا ذلك الحصـاد الرصيـن والرقيق الانيق فى ذات الوقت الناتـج عن ضـم الاندلس الى المغـرب فى وحدة حقيقية سياسية وعسكرية وفكرية وحضارية لاول مرة تحت حكم واحـد يوقف الزحف العسكرى النصرانى ويطيـل عمـر الحضارة الاندلسية فى رحاب السمو الاسلامى والتقـدم المزدهر الذى عاشت عليه اسبانيا بعد زوال حكم الاسلام بهـا لعـدة قـرون ، لكفى ذلك المرابطين فخرا فى مجـال مـزج العبقريتين الاسلاميـة المغربية والاسلامية الاندلسيـة بميراثهـا اللامـــع (٧٧) .

ولا ينكر باحث أن ثمة أخطاء وقعت فيها الدولة الموحدية

---

(٧٦) عثمـان اسماعيل : المرابطون وفضلهـم السياسى والحضارى : مقال بمجلة دعوة الحق المغربية العدد ٩ سنة١١١ .
(٧٧) المكان السابق .

على ان تلك الاخطاء التى نقرؤها فى سطور الدولة الموحدية الاولى قد اقتصرت على حياة المهدى بن تومرت تقريبا ، وكما يخرج النور أحيانا من التراكمات المظلمة وكما تنبثق الشمس من بين السحب ٠٠ كذلك فما أن مات المهدى بن تومرت سنة ٥٢٤هـ حتى بدأت موازين دولة الموحدين تعتدل على يد (عبد المؤمن بن على) الذى خلف محمد بن تومرت ومات سنة ٥٥٨هـ ٠٠ ثم أبنه يوسف بن عبد المؤمن ٥٨٠ هـ فابنه يعقوب المنصور (ت ٥٩٥هـ) بطل معركة (الارك) التى وطدت لدولة الاسلام فى الاندلس نحو ربع قرن من الزمان ، ثم الناصر المتوفى سنة ٦١٠ هـ ٠

وبعد هذا الجيل المقدر للمسئولية تتابع أمراء الضعف المشغولون بانفسهم وملذاتهم وصراعاتهم الداخلية أمثال : يوسف بن محمد المستنصر (ت ٦٢٠ هـ) ، عبد الواحد بن يوسف (ت٦٢١هـ) وعبد الله بن المنصور (ت ٦٢٤هـ) والمأمون والرشيد والسعيد والمرتضى وادريس الذى قتل سنة ٦٧٤هـ وبقتله انتهت صفحة دولة الموحدين ٠٠٠

ان هذه الدولة الموحدية كانت الدولة الكبرى الجامعة التى انتظمت المغرب كله ، والاندلس كله ، وقد اقامت وحدتها على أنقاض دويلات طائفية كادت تقوم فى الاندلس مرة أخرى بعد انحدار نفوذ المرابطين وعلى انقاض دويلات مغربية طائفية كذلك ، أبرزها دولة بنى حماد فى الجزائر ودولة بنى زيرى التى كانت قد خضعت لسيطرة النورمان على تونس ، ثم دويلات زناتية منتشرة فيما بين برقة ، وموريتانيا من الجنوب الصحرواى المغربى ٠

فلهذه الدولة الفضل فى هذه الوحدة التى انتظمت المغرب والاندلس كما أن لها اليد الطولى فى عودة تونس الى

حظيـرة الاسـلام بعـد أن استولى عليهـا النصارى النورمان المتعصبون .

وقد اشتهر عن الدولة الموحدية ، وبخاصة فى عهد امرائها الاقوياء ازدهارها الاقتصادى الـذى تمثـل فى أربعـة مظاهر أساسية هى :

أولا : كثرة المصانع سواء فى المغرب أو الاندلس .

ثانيـا : التبادل التجارى مع مختلف اقاليم حوض البحر المتوسط حيث كانت للموحدين مكاتب تجارية تشبه الفنادق فى بعض مدن فرنسا وايطاليا كمرسيليا وجنـوة والبندقية .

ثالثـا : العملـة الموحدية القويـة .

رابعا : الاسطول التجارى البحرى الـذى كانت تفـرزه صناعـة السفن (٧٨) .

وفى المجال العقدى أو الفكرى وفـق الموحدون فى وجـه السيطرة الكاملة التى تمتع بهـا فقهاء المذهب المالكى والذين كادوا يغلقون أبواب الاجتهاد . فلما جـاء الموحدون دعوا الى الاجتهاد وشجعـوا الرجوع الى الكتاب والسنـة وازدهرت فى عهدهم دراسة علمى الكلام والاصول وكان من نتيجة ذلك ان لان فقهاء المالكية وتركوا التعصب المذهبى الاعمى ومالوا الى النظـر فى كتب الاصـول .

وقـد انتشر فى عهـد الموحدين مذهب الظاهرية ، حتى أن الاميـر الموحدى يعقوب المنصور مـال الى الاخـذ بمذهب

---

(٧٨) أنظر / استاذنا الدكتور أحمـد شلبى : الموسوعة ١٥٣/٤ وما بعدها .

الظاهرية اعجابا بابى محمد على ابن حزم الظاهرى ، وكـان لا يفتا يقول لاشياخ المذهب الكبار بانهم عيال على ابن حزم ٠

وفى عصـر الموحدين ، وفى قصورهم عـاش ابن سبعين السبتى ، وابو الوليد بن رشـد ، وأبو بكر محمـد بن طفيـل وأبو بكر بن زهر الطيب ، وأبـو العباس الانصارى المعروف بابن الصقر ، وأحمد هارون الشطبى وغيرهم ٠

وفى علـم الاصول والكلام نبغ أبو عمران عثمان القيسى المعروف بالسلالجى وصاحب كتاب العقيدة البرهانية ، وأبـو عبد الله محمد بن عبد الكريم العندلاوى المعروف بأبن الكتانى وأبو الحسن على بن الخزرجى المعروف بابن الحصار ٠

وفى التفسير والحديث عرف أبو الحسن على بن أحمـد المراكشى ، ومحمد ابن يوسف ، وأبو محمد المكناسى ، والقاضى أبو الفضل عياض صاحب (الشفافى التعريف بحقوق المصطفى) وترتيب المدارك فى التعريف بأعلام مذهب مالك ٠

وفى الفقه عرف القاضى عياض وولده محمد أبو عبد الله وأبو الحسن الرجراحى صاحب التحصيل فى شـرح المدونة ، وفى اللغـة والنحو والادب عرف أبو عبد الله محمد بـن عبـد المنعم الصنهاجى ، وأبو الخطاب بن وجيه وأبو مدرس عيسى بـن عبـد العزيز المراكشى ، وتلميذه ابن معطى أبـو زكريـا الزواوى صاحب الالفية فى النحو (٧٩) ٠

وما ذكرناه ليس الا المامـة سريعة بأبرز مـن عرفوا فى العصر الموحدى فى بعض العلوم ، لكـن هناك آخرون كثيرون

---

(٧٩) أنظـر عبـد الرحمن الحجى : التاريـخ الاندلسى ٤٦٠ وما بعدها ٠

عرفوا فى العلـوم التى ذكرناها ، ولـم نـر ضرورة لذكرهـم كما أن هناك كثيرين برزوا فى العلوم العملية كالهندسة والطب والجغرافيا وغيرها مـن أمثال العالـم الاندلسى ابى الحسـن القيسى وأبى عبد الله العابد الانصارى وابن الباسمين ، وأبى على حسن المراكشى الفلكى ، ويحيى بن بقى السلاوى الطيب وغيرهم ... لكننا فى هذا المجال نقدم نماذجا تؤكد ما نذهب اليه مـن وجود آثـار حضارية يانعة لدولة الموحدين .. لايمكن لنـا أن نغض الطرف عنها لمجرد أن السطور الاولى فى حيـاة هذه الدولة كانت سطورا مشوبه بالقلق والتخبط ..

ان هـذه السطور الاولى التي تمثلت فى حيـاة المهـدى وأفكاره لايمكن أن تقضى على كل ماحوته صفحة دولة الموحدين الرائعة ، فى كتاب حضارتنا الاسلامية .. حضارة الحق والعدل التى تبطل الباطل فى موضعه وتحق الحق فى موضعه « فامـا الزبد فيذهب جفاء وامـا ماينفع الناس فيمكث فى الارض» .

في تاريــخ المذاهب الاسلاميــة
والمذهب الظاهرى : نشاته
ومناهجه الاصولية ، واشهر رجاله

تـــوطئـــة :

فى حوار بين عالمين فاضلين فى مجلة اسلامية شهريـــة ، تنــاول أولهمــا التعقيب على فتوى للاخر ، فكان ممــا قالــه سامحه الله :

« ان المذهب الظاهرى ليس من المذاهب التى يحتج بها أو يركن اليها ، وقــد انقرض هذا المذهب (الى الابــد) فــلا يجوز الرجوع اليــه ، ولا الاعتماد عليه فى الفتاوى ، ناهيك أن الظاهرية يخالفون أهل السنة والجماعة فى كثير من المسائل ولهم شطحات تخالف ما توحى وتهدف اليــه الشريعة الغراء مــن معان وأسرار ، وحكــم مــن وراء التشريع ، ويتمسكون بظاهر النص ويقفون عند حده »(٨٠) .

ان هذا النص ــ وقــد تعمدنا عــدم ذكر صاحبه ابتعادا عن التجريح ــ هو وثيقة خطيرة تعكس معاملة بعضنا لسلفنا الصالح · وويــل لامــة يلغى خلفها جهود سلفها الهائل بهــذه البساطة الشديدة ، وبهذا العــداء الغريب ، لدرجة أن كــاتب النص يصادر حق السلف فى الامتداد للاجيال القادمة التى ربما تكــون أبصــر منــا ، فيعلن أن مذهب الظاهرية قــد انقرض (الى الابــد) ·

ثــم يفتى كاتب النص (سامحه الله) وأنار بصيرته ــ بــأن الظاهرية (هكــذا بالجملة) لا يجوز الرجــوع اليهــم

---

(٨٠) مجلة الامة القطرية عدد جمادى اولى ١٤٠٣هـ ·

ولا الاعتماد عليهم فى الفتاوى ـ أى اننا يجب أن نضع موسوعة (المحلى) بأجزائها الثلاثة عشرة فى سلـة المهملات ، ونصادر هذا الرافد الخطير من روافد تراثنا ٠ وكان من حقنا ان نعبث بتراثنا هـذا العبث الخطير ٠

ويرى كاتب النص ـ كذلك ـ أن الظاهرية يخالفون أهل السنـة والجماعة فاذا كان الظاهرية يخالفون أهـل السنة ٠٠ فهل هـم من أهـل الرأى ؟ أو هل هم من الباطنية ؟

ان الظاهرية هم أكثر أهـل السنـة تشددا ، وما عيبهم المشهور عنهم الا هذا التشدد ، وليس الخروج من أهل السنة ، كمـا يقول الكاتب سامحه الله ، واذا كانت للظاهرية اجتهادات مرفوضة ، فلكـل مذهب كذلك اجتهادات مرفوضة مـن قبـل الاخرين ، فليس الظاهرية بدعا فى هذا الامر ٠

أمـا ما يقوله صاحب النص من أن للظاهرية «شطحات تخالف ما تهدف اليه الشريعة من معان وأسرار وحكم من وراء التشريع ويتمسكون بظاهر النص ويقفون عند حده » ٠٠ فهذا القول ـ بالرغم من مبالغة الظاهرية فى بعض المسائل ـ هـو مـدح لهـم وليس قدحا ، وهو يضعهم فى القمة من أهل السنة ولا يخرجهم عن دائرتها ، وهـل درى كاتب النص ـ سامحه الله ـ أنه تحت عباءة (معانى الشريعة وحكمها وأسرارها) دخـل كثيـر من أصحـاب البدع والاهواء والعقائـد الباطنية والمعطلـة والمقرامطة ؟ ٠

فهـل موقف الظاهرية (أحوط) مـن غيرهم أو أنهـم خرجوا عن أهل السنة والجماعة ؟ علما بأن للظاهرية اجتهادات جديدة ومتفوقة وصلوا اليها عن طريق التزامهم بالفقه الظاهرى للنصوص ، ومـع ذلـك فهـذه الاجتهادات الجديـدة لا تعجب

الكثيرين ... فالظاهرية مظلومون حين لا تقودهم الدلالة الظاهرية للنص الى شىء من التوسيع ، ومظلومون حين تقودهم النصوص الى التوسيع ، فهم فى الحالين مظلومون .

ان هؤلاء الظاهرية هم جزء أصيل من تراثنا الفقهى، بل هم صفحة مشرقة من صفحات هذا التراث ، وهم جديرون بالدراسة والاستقصاء والاحياء لما اندرس من تراثهم شأنهم فى ذلك شأن بقية المذاهب التى اندرست ، ولم يكن أصحابها أقل من غيرهم من أصحاب المذاهب التى شاعت فشيوع المذاهب له ظروف تاريخية وسياسية وخارجية كثيرة، وليس شيوعها راجعا لطبيعتها ، وكلمة الشافعى التى قال فيها عن الليث بن سعد : « الليث أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به » هى كلمة حاسمة فى الموضوع .

وسامح الله الذين يظلمون ... من ظلمهم التاريخ .

معنى الظاهرية :

تفهم الظاهرية ـ من مدلولها العابر ـ على أنها فهم النصوص وفق دلالتها التى تدل عليها ألفاظ اللغة ، دون تأويل أو مجاز .

بيد أن (الظاهرية) قد أصبحت اتجاها فقهيا معروفا له أتباعه وأقطابه ومع ذلك فان مصطلح الظاهرية لم يوقف عنده ـ حتى من أبناء المذهب ـ الوقفة التحليلية اللغوية والاصطلاحية الشافية .

وعندما عقد (ابن حزم) فصلا خاصا عن (حمل الاوامر والاخبار على ظواهرها) (٨١) ، اكتفى بتقديم أدلته ، ونقض

---

(٨١) أنظر الاحكام الجزء الثالث (الباب الثانى عشر) .

أدلة المخالفين ، دون أن يشهد لذلك ببيان معنى الظاهر(٨٢) ولعل مرجع ذلك الى وضوح معنى الظاهر فى ذهنه أو لانه شرح معنى الظاهر فى بعض كتبه المفقودة (٨٣) مثل كشف الالتباس أو الايصال أو غيرهما) ٠

ولكننا من خلال حديث (ابن حزم) نستخلص أنه استعمل الظاهر بمعنى الخروج من الخفاء – أى التأويل – الى المعنى الواضح البارز بذاته الذى يستنبطه العقل على البديهة بحكم منطوق اللغة ودلالة مفهوم خطابه الذى يبدو للسامع(٨٤) وفق استعمال العرف والعادة ٠ وذلك فى اطار المصدرين الثابتين : القرآن والسنة ، بحيث يمكن القول بأن شرح أفكاره ليس سوى تنسيق مختصر ومنتخب من المصطلحات المتفرقة فى القرآن والاحاديث ومن قول (ابن حزم) المبين لذلك : (واعلموا أن دين الله ظاهر لا باطن فيه وجهر لا سر تحته كله برهان لا مسامحة فيه ٠ واتهموا كل من يدعو الى أن يتبع بلا برهان، وكل من ادعى للديانة سرا وباطنا فهى دعاوى ومخاريق واعلموا أن رسول الله لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها (٠٠٠٠) ولا كان عنده عليه السلام سر ولا رمز ولا باطن (٨٥) ٠

---

(٨٢) انظر أبو عبد الرحمن بن عقيل : الظاهرية ومدلولاتها بين اللغة والاصطلاح الاصولى ، مجلة الدعوة السعودية عدد ٤١٧ (٦ – ٨ ١٣٩٣هـ) ٠

(٨٣) المكان السابق ٠

(٨٤) أنظر ابن حزم : الرد على ابن النفريلة ، ص٩٤ ٠

(٨٥) الفصل ٢ – ١١٦ ٠

وفى هذا المعنى يقول شعرا منه :

قالوا تحفظ فان الناس قـد كثرت
أقوالهم ، وأقاويل العدى محن
فقلت هـل عيبهم لى غير أنى لا
أقول بالرأى ؟ اذ فى رأيهم أفن
وأننى مـولـع بالنص لست الى
سواه أنحو ـ ولا فى نصره أهن
لا أنثنى نحـو آراء يقـال بهـا
فى الدين بل حسبى القرآن والسنن

فهكذا يتحدد لنـا ـ من خـلال النثـر والشعر ـ المعنى الاصطلاحى للظاهرية فضلا عن المعنى اللغوى كذلك .

المذهب الظاهرى وعوامـل نشـاته :

ينتمى المذهب الظاهرى الـى مذاهب السنـة والاثـر ، وبالتالى فان لنـا أن نتوقع بدايات متناثرة للفقه وفـق المنهج الظاهرى خلال القرنين الاول والثانى الهجريين .

بيد أن الظاهرية كمذهب لـم تظهر الا فى النصف الاول من القرن الثالث الهجرى ، على يـد (داود بن على بن خلف بن على الظاهرى (ت ٢٧٠هـ) الذى عرف بالقول بالظاهر ، وبمدافعته عن فقه الظاهر ورفضه للقول فى دين الله بالرأى أو القياس . وكان داود حادا ،وكان ورعا زاهدا ، بيد أن المذهب كاد يموت من بعده ، لانـه لـم يحـرر مسائله ، ولـم يدونه تلامذته . ويحدثنا (ابـن النديم صاحب الفهرست) بتفصيل طيب عن (أبى سليمان داود الظاهرى ... فيقول : « أبـو سليمان داود بن على بن داود بن خلف الاصفهانى ، وهو أول

مـن استعمل قـول الظاهر ، وأخـذ بالكتاب والسنـة والغى ما سوى ذلك من الرأى والقياس ، وكان فاضلا صادقا ورعا ٠ وتوفى داود سنة سبعين ومائتين وله من الكتب كتاب الايضاح، وكتاب الافصاح ، وكتاب الدعـوى والبيانات كبير ، وكتـاب الاصول وكتـاب الحيض ٠

قال محمد بن اسحق : قرأت بخط عتيق يوشك أن يكون كتب فى زمان (داود بن على) : تسمية كتب (أبى سليمان داود بن على) ، وقـد أثبتها على ترتيب ما قرأت كتاب الطهارة، كتاب الحيض ، كتاب الاذان ، كتاب الصلاة ، كتاب القبلة ، كتاب المواقيت ، كتاب السهو ، (أربـع مئـة ورقـة)، كتاب الاستسقاء ، كتاب افتتاح الصلاة ، كتاب ما تفسد به الصلاة ، كتاب الجمعة ، كتاب صلاة الخوف ، كتاب صـلاة العيدين ، كتاب الامامة ، كتاب الحكم على تارك الصلاة ، كتاب الجنائز كتاب غسل الميت ، كتاب الزكاة (ثلثمائة ورقة) ، كتاب صدقة الفطر ، كتاب صيام التطوع ، كتاب صيـام الفرض (ستمائة ورقـة) ، كتاب الاعتكاف ، كتاب المناسك ، كتـاب مختصر الحج ، كتاب النكاح (الف ورقـة) ، كتـاب الصداق ، كتاب الرضاع ، كتاب النشوز ، كتاب الخلع ، كتاب البينة على من يستحق البينة عليه ، كتاب الاستبراء ، كتاب الرجع ، كتـاب مسالة الفىء ، كتاب الايلاء ، كتاب الظهار ، كتاب اللعان ، كتاب المفقود ، كتاب الطلاق ، كتـاب طلاق السنـة ، كتـاب الايمان فى الطلاق ، كتاب الطلاق قبـل الملك ، كتـاب طـلاق السكران والناسى ، كتاب العدد ، كتاب البيوع ، كتاب الصرف كتاب المأذون لـه فى التجارة ، كتاب الشركة ، كتاب القروض، كتاب الوديعة ، كتاب العارية ، كتاب الحوالة والضمان ، كتاب الرهن ، كتاب الاجارات ، كتاب المزارعة ، كتاب المسافات ،

كتاب المحافرة والمعاقل ، كتاب الشرب ، كتاب الشفعة ، كتاب الكفالة بالنفس ، كتاب الوكالة ، كتاب أحكام الاباق ، كتاب الحدود ، كتاب السرقة ، كتاب تحريم المسكر ، كتاب الاشربة كتاب الساحر ، كتاب قتل الخطأ ، كتاب قتل العمد ، كتاب القسامة ، كتاب الجنين ، كتاب الايمان والكفارات ، كتاب النذور ، كتاب العتاق ، كتاب المكاتب ، كتاب المدير ، كتاب ايجاب القرعة ، كتاب الصيد ، كتاب ذبائح المسلمين ، كتاب الاضاحى ، كتاب العقيقة ، كتاب الاطعمة ، كتاب اللباس ، كتاب الطب ، كتاب الجهاد ، كتاب السير ، كتاب قسم الفيء ، كتاب قسم ذوى القربى ، كتاب قسم الصدقات ، كتاب الخراج كتاب المعادن ، كتاب الجزية ، كتاب القسمة ، كتاب المحاربة كتاب سير العادلة ، كتاب المبد ، كتاب اللقطة والضال ، كتاب اللقيط ، كتاب الفرائض ، كتاب ذوى الارحام ، كتاب الوصايا ، كتاب الوصايا فى الحساب ، كتاب الدور ، كتاب الولاء والخلف ، كتاب الختان ، كتاب الاوقات ، كتاب الهبة والصدقة ، كتاب القضاء ، كتاب الاب القاضى ، كتاب القضاء على الغائب ، كتاب المحاضر ، كتاب الوثائق (ثلاثة آلاف ورقة) ، كتاب السجلات ، كتاب الحكم بين أهل الذمة ، كتاب الدعوة والبينات (ألف ورقة) ، كتاب الاقرار ، كتاب الرجوع من شهادات ، كتاب الحجر ، كتاب النفريس ، كتاب الغصب، كتاب الصلح ، كتاب النضال ، كتاب ما يجب من الاكتساب ، كتاب الذب عن السنن والاحكام والاخبار (ألف ورقة) ، كتاب الرد على أهل الافك ، كتاب المشكل ، كتاب الواضح والفاضح للساعى ، كتاب صفة أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم ، كتاب أعلام النبى صلى الله عليه وسلم ، كتاب المعرفة ، كتاب الدعاء كتاب المستقبل والمستدبر ، كتاب الاجماع ، كتاب ابطال التقليد ، كتاب ابطال القياس ، كتاب خبر الواحد ، كتاب

الخبر الموجب للعلم ، كتاب الحجة ، كتاب الخصوص والعموم كتاب المفسر والمجمل ، كتاب تردد الافكار ، كتاب رسالة الربيع بن سليمان ، كتاب رسالة أبى الوليد ، كتاب رسالة القطان ، كتاب رسالة هارون الشارى ، كتاب نصاح (خمس مائة ورقة) كتاب الايضاح (أربعة آلاف ورقة) ، كتاب المتعة »(٨٦) ٠

ومما أورده فيهوفى أسرته (السمعانى أبو سعيد عبد الكريم بن محمد المتوفى سنة ٥٦٢ فى كتابه الانساب) ما يلى :

« الظاهرى – بفتح الظاء المعجمة والهاء المكسورة بعد الالف وفى آخرها الراء ، هذه النسبة الى أصحاب الظاهر ، وهم طائفة ينتحلون مذهب داود ابن على الاصفهانى صاحب الظاهر ٠ فانهم يجرون النصوص على ظاهرها ، وفيهم كثرة ٠

وداود هو أبو سليمان داود بن على بن خلف الفقيه الظاهرى أصبهانى الاصل ، سكن بغداد ، وكان من أهل فاشان بلدة عند أصبهان ، سمع سليمان ابن حرب وعمرو بن مرزوق والقعنبى ومحمد بن كثير العبدى ومسدد بن مرهد ، رحل الى نيسابور وسمع من اسحاق بن راهوية المسند والتفسير ٠ قدم بغداد وصنف كتبه بها ، وهو أمام أصحاب الظاهر ، وكانورعا ناسكا زاهدا ٠ وفى كتبه حديث كثير الا أن الرواية عنه عزيزة جدا ٠ روى عنه ابنه محمد بن داود ، وزكريا بن يحيى الساجى ويوسف بن يعقوب ابن مهران الداودى ، والعباس بن أحمد المذكر ، وذكره أبو العباس ثعلب ، فقال : كان عقله أكثر من علمه ، وقال أبو عبد الله المحاملى ، رأيت داود ابن على يصلى فما رأيت مصليا يشبهه فى حسن تواضعه٠

---

(٨٦) الفهرست لابن النديم ٣٠٧/٣١٣ المطبعة الرحمانية

وقد حكى لاحمد ابن حنبل عنه قول فى القرآن بدعه فيه وامتنع من الاجتماع معه بسببه . واستأذن له ابنه صالح بن أحمد يدخل عليه فامتنع ، وقال : كتب الى محمد بن يحيى الذهلى من ينسابون أنه زعم أن القرآن محدث فلا يقربنى ، قال : يا أبت ينتفى من هذا وينكره . فقال أحمد بن حنبل: محمد بن يحيى أصدق منه ، لا تأذن له فى المصير الى . قال أبو بكر أحمد ابن كامل بن خلف وفى شهر رمضان منها ـ يعنى سنة سبعين ومائتين ـ مات داود بن على ابن خلف الاصبهانى وهو أول من «أظهر» فسماه دليلا . وحكى ابنه محمد بن داود قال : رأيت أبى فى المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال: غفر لى ، وسامحنى . قلت : غفر لك ، فممم سامحك ؟ قال: يا بنى الامر عظيم ، والويل كل الويل لمن لم يسامح ، ولد سنة احدى ومائتين ، ومات ببغداد سنة سبعين ومائتين . وكان أبوه على بن خلف يتولى كتابة عبد الله ابن خالد الكوفى قاضى أصبهان أيام المأمون وابنه أبو بكر محمد بن داود ابن على بن خلف الاصبهانى الفاشانى صاحب كتاب الزهرة ، كان عالما أديبا وشاعرا ظريفا . وله فى الزهرة أحاديث عن عباس بن محمد الدموى وطبقته ولما جلس فى حلقة أبيه بعد وفاته يفتى استصغره من ذلك فدسوا اليه رجلا وقالوا له سله عن حد السكر ما هو ؟ فاتاه الرجل فساله متى يكون الانسان سكران ؟ فقال محمد بن داود اذا عزبت عنه الهموم وبات بسره المكتوم : فاستحسن ذلك منه وعلم موضعه من العلم (٨٧) .

(٨٧) الانساب (بتصرف) السمعانى الجزء التاسع ص : ١٢٩ ـ ١٣٢ دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد الهند ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م ، وأنظر بروكلمان تاريخ الادب العربى ج٣ ، ص٣١٦ وما بعدها ـ دار المعارف بمصر ط ع/٧٧ ، وأنظر الشيخ محمد أبو زهرة : ابن حزم ٢٦٢ ، دار الفكر العربى مصر .

ولعل فى هـذا القدر الذى ورد فى ترجمتى ابـن النديـم والسمعانى لـدواد ـ ما يكفينـا ، ويغنينا عن غيرهمـا مـن التراجم التى لا تزيد عما ورد فيهما ٠

ـ ولعله يتضح لنا كذلك من هذا العرض أن (الظاهرية) مجرد مذهب فقهى لـه أصوله كما لكل مذهب أصول فقهية ، وله فروعه المدونة كذلك ، والتى فند بها أصحابها آراء المذاهب الفقهية الاخرى المعتمدة على الرأى وخلافه من الاصول التى تقـول بهـا الظاهرية ٠

فليس صحيحا اذن ما ذهب اليه الاستاذ عباس محمـود العقاد(٨٨) والدكتور محمود حقى(٨٩) وكارل بروكلمان(٩٠) من أن الظاهرية ما نشأت وسميت بهذا الاسم الا على سبيـل المقابلة بينها وبين الباطنية الاسماعيلية والصوفية والخرافات٠

وقـد رأى الاستـاذ عباس محمـود العقـاد أن البواعث التاريخية لنشأة الظاهرية تنحصر فى باعثين :

الاول : أن هذا المذهب الظاهرى نشأ ليقاوم الباطنية من الناحية الفكرية ولينكر الحاجة الى امام مستتر ٠

الثانى : أنـه قـد ابتعثتـه دواعى السياسة فى المغرب ، وما يقال عن هذه المقابلة بين اظلاهرية (التى هى اجتهاد فى الفروع) والباطنية (التى هى تحريف فى الاصول) مردود مـن عـدة وجوه :

---

(٨٨) أنظر التفكير فريضة اسلامية ١٢٩ ، ١٣٢ ٠
(٨٩) حجة الوداع (٢٠) مقدمة ٠
(٩٠) أنظر تاريخ الشعوب الاسلامية ٣١٤ ٠

١ ـ أن الظاهرية قد نشأت على يد داود قبل ظهور الباطنية ، وبينهما ما لا يقل عن ثلاثة عقود .

٢ ـ أنه لم يعرف لدواد اتصال بالباطنية أو مناقضات مع أعلامهم (٩١) .

٣ ـ أنه لو كانت الظاهرية رد فعل للباطنية لما وقف منها أصحاب المذاهب الفقهية الاخرى هذا الموقف ، فهم بدورهم يقاومون الباطنية شأنهم كسائر المسلمين .

٤ ـ أن ابن حزم لم يشغل نفسه بالباطنية (٩٢) ـ فى كتبه ومعاركه الفكرية ـ الا بقدر لا يزيد فيه عن غيرها من الفرق الضالة ، وهذا على العكس من مناقشاته فى المحلى ، والاحكام فى أصول الاحكام ،وابطال القياس ، وملخص الابطال والنبذ ، والرسائل لاصحاب المذاهب الفقهية وعلى رأسهم الحنفية والمالكية .

وهى كلها مناقشات تؤكد أن الظاهرية مذهب فقهى يتحدث فى الفروع ويستنبط الاحكام من القرآن والسنة شأنه شأن بقية المذاهب وان كانت له سماته الخاصة ، وليس كما ذكر العقاد أو غيره من أنه مذهب فى العقائد أو أنه نشأ ليقاوم الباطنية، بل ليقاوم فى دين الله بالرأى والاستحسان .

منهج الظاهرية فى البحث :

من خلال ما بقى من تراث الظاهرية ، ولا سيما تراث الامام أبى محمد على بن حزم نستطيع التعرف على أهم معالم

---

(٩١) أبو عبد الرحمن بن عقيل : نظرات لاهثة ، ص ٢٩ ، مطابع الشهرى ١٣٩٦هـ ، الرياض ط ١ .
(٩٢) أنظر المرجع السابق ، ص ٣١ـ٣٢ .

منهج الظاهرية فى البحث بعامة ، والبحث الفقهى بخاصة ٠٠ وهذا المنهج يتلخص فى المعالم التالية :

١ ـ الالتزام بالنص قرآنا أو سنة ثابتة فى حدود المعنى الظاهر بحكم دلالة اللغة الواضحة ٠

٢ ـ الاعتراف باجماع الصحابة ومن يجىء بعدهم ، كمصدر للتشريع ورفض للقياس والاستحسان وسد الذرائع وغيرها ٠ ويضاف الى الاجماع مصدر يسمى الدليل وهو أمر مولد من النص أو الاجماع وليس حملا عليها ٠

٣ ـ ايراد حجج الخصوم ، واعتبار التجنى على الخصوم والتقول عليهم بما لم يقولوا جريمة فى البحث الدينى٠

٤ ـ المساواة بين الصحابة وقد يؤخذ كلام بعضهم ، ويترك كلام البعض ، وأما ما اختلف فيه الصحابه فليس قول بعضهم أولى من قول بعض(٩٣) ٠ ومن جاء بعدهم أولى بذلك ٠ والشريعة وحدها هى المتقيد بها ٠

٥ ـ النظر الى أئمة المذاهب نظرة متساوية لانه لا معنى للتعصب لمالك دون الشافعى ، أو غيره ٠

٦ ـ رفض التقليد ويكفى أن القائلين به مقرون على أنفسهم بأنه لا يحل(٩٤) فلا يحل لاحد أن يأخذ بقول أحد بلا برهان (٩٥) ٠

---

(٩٣) الرد على ابن النغريلة ، ٨٩ ٠

(٩٤) أنظر ابن حزم : ملخص الابطال ٥٢ وما بعدها، وأنظر الاحكام فى أصول الاحكام ، الباب السادس والثلاثين (وكله خاص بابطال التقليد) ٠

(٩٥) النبذ ، ص ٥٤ وينظر ورقة ٢٢٨ من مخطوطة (رسالة فى الامامة) مكتبة شهيد على ٠

٧ ـ الاهتمام بالمصادر الكثيرة ، لكنهم يكتفون بذكر أصحابها في مجال الاستشهاد بآرائهم أو مخالفتها مثل البخاري ومسلم وأبى داود والنسائي ومالك وأحمد والبزار ، والحاكم وغيرهم ، وكثرة المطالعة لكل الآراء (٩٦) .

٨ ـ لا حجة في الكثرة (فاذا خالف واحد من العلماء جماعة فلا حجة في الكثرة لان الله تعالى يقول ، وقد ذكر أهل الفضل « وقليل ما هم » (٩٧) وقال : (وقليل من عبادى الشكور) .

٩ ـ العبرة في الامور بالفعل فاذا روى عن صحابى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم روى عن ذلك الصحابى فعل خلافه فيؤخذ فعله ويترك ما روى عنه (٩٨) .

١٠ ـ رفض التعليل ، فالشريعة تعبدية والمعقول منها نص الله سبحانه وتعالى على معقوليته .

فهذه المعالم العشرة يلمسها الباحث ـ بجلاء ـ وهو يدرس الفقه الظاهرى أو يقرأ لمفكرى الظاهرية في القديم والحديث .

أصول التشريع عن الظاهرية :

الظاهرية مذهب اجتهادى نصى في وقت واحد ، وقد وصل الظاهريون عن طريق الالتزام بالنص ، والاحاطة النصية

---

(٩٦) الكتانى معجم فقه ابن حزم ٨١ ، وانظر التقريب ١٩٨ ، وانظر الرد على ابن النغريلة ١١٤ .

(٩٧) المرجع السابق ٣٣ ، وأنظر التقريب لحد المنطق ١٩٤ .

(٩٨) المرجع السابق ٣٦ .

الطيبة ، والتعمق فى فقه النصوص الى عدد من القضايا التى اعتبرت تجديدا فى اطار الفقه الاسلامى ، وميزة الظاهريين أنهم حتى فى داخل المنهج الظاهرى يبيحون لانفسهم الاجتهاد ويعتبرون سابقهم مجرد أستاذ للاحقهم يؤخذ من كلامه ويترك ومع ذلك فثمة مصادر تشريعية عامة التزم بها الظاهريون .

ويقف أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ـ كممثل أكبر للظاهرية ـ بأصول التشريع الاسلامى عند أربعة أصول هى (القرآن ، والسنة ، والاجماع ، والدليل) .

١ ـ فالقرآن الكريم هو مصدر المصادر ، فما من أصل شرعى الا كان اشتقاقه من القرآن فهو الاصل لكل أصل فى الاسلام . « **وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم** » .

وابن حزم يرى أن أصل (البيان) ثابت فى القرآن اما بذاته واما ببيان السنة أو الاجماع (٩٩) .

ويعتبر ابن حزم من أنواع البيان ثلاثة : الاستثناء ، والتخصيص ، والتوكيد ، فالاستثناء والتخصيص مثلما ورد فى آية اهلاك قوم لوط ... الا آل بيته باستثناء امرأته من بينهم . والتوكيد مثل قوله تعالى : « **فتم ميقات ربه أربعين ليلة** » بعد أن ذكر تعالى ثلاثين ليلة وعشرا .

والفاظ القرآن تفهم بمقتضى الظاهر فيها ، الا اذا قام دليل آخر من نص آخر على غير ذلك ، ويكون بيانا للاول .

---

(٩٩) أنظر ابن حزم : النبذ ، ص ٧ .

٢ ـ أمـا السنـة فهى متممة للقرآن فى بيـان الشريعـة (والشافعية ينظرون نظرة الشافعى من حيث أنه يعتبر القرآن والسنـة جزءين أو قسميـن كلاهمـا يتمـم الآخـر ويسميهما النصوص) (١٠٠) .

وأقسام السنة عندهم مثلما هى عند غيرهم ثلاثة : (قول وفعل وتقرير) لكنه يرى أن الحجة هى أقوال النبى ... أما الفعل فلا يكون حجة الا اذا اقترن بقول أو قامت قرينـة قيامه مقام القول ، أو كانت تنفيذا لامـر .

والسنن عندهم ـ مـن زاويـة أخرى ـ تنقسم قسمين : سنن متواترة ، وأخبار آحاد ... فالمتواتر (هو ما نقلته كافة بعد كافة لا تقل عن أثنتين لم يلتقيا) حتى تبلغ النبى صلى الله عليه وسلـم (١٠١) ، وهـذا أثـر لـم يختلف مسلمان فى الاخذ بـه .

وقـد أجهد ابن حزم نفسه فى البحث عنـه فجمـع منـه نحو ثمانين حديثا أوردها فى المحلى ، الذى اعتبره الاصوليون ثروة كبيرة للمحدثين والفقهاء جميعا . والمتواتر الذى انتهى اليـه ابـن حـزم قـد اعتمده من جاءوا بعـده مـن المشارقة والمغاربة (١٠٢) . اما حديث الآحاد فهو ـ عنـده ـ ما نقله الواحد عن الواحد واتصل برواية العدول الثقات الى رسول الله

---

(١٠٠) أنظر ابن حـزم : الاحكام فى أصول الاحكام ، ط ١ ، ص ٨٠ وما بعدها وأنظر المحلى ١ـ٦٨ .
(١٠١) أنظر الكتانى معجم فقـه ابن حزم ٥٦ . .
(١٠٢) الكتانى : معجم فقـه ابن حزم ٥٦ـ٥٧ .

صلى الله عليه وسلم ويجب الاعتقاد بصدقه والعمل به ، وابن حزم يقدم من سيرة الرسول الادلة على توثيق هذا الحديث ، فقد بعث الرسول عليه السلام معاذا الى اليمن ، وأبا بكر أميرا للحج وأبا عبيدة الى نجران ... وهم آحاد (١٠٣) .

أمـا الحديث الموقوف ـ وهو ما لم يبلغ بـه الى النبى صلى الله عليه وسلم والحديث المرسل وهـو ما كان فى رواته مجهول ـ فلا تقوم بهما حجة (١٠٤) .

ومن مقررات ابـن حـزم فى هذيـن المصدرين (القرآن والسنة) أنـه لا تعارض بين نصوصهما متكاملة ، وذلك لانه لا يتصور تعارض ما دام المصـدر هـو الوحى الالهى . وأى تعارض يبدو فى الذهن انما مرجعه الى أنه تخصيص لعـام ، أو تتمة لمعنى جديد لـم يستوفه النص الاول ، أو أمـر خاص بعـد نهى عـام (١٠٥) .

ومـن مقرراتـه كذلك أن الاوامـر والنواهى الواردة فى القرآن والسنة تؤخذ على ظاهرها ،أى الوجوب الحتم أو النهى الحتم ، ومن هنا فقد انفرد ابن حزم بآراء منها فرضية الزواج

---

(١٠٣) أنظر ابن حزم : المحلى ١-٦٥ ، ٦٦ ، و د. سلام مدكور ، منهاج الاجتهاد فى الاسلام ٧٠٨ .

(١٠٤) أنظر أبا زهرة : ابن حزم ١٣٨ وما بعدها .

(١٠٥) وقد مثل الاجماع السلطة التشريعية بعـد عهـد الرسول عليه السلام . وقـد اعتمد الصحابة فى اجماعهم على صحبتهم وفهمهم لنصوص الكتاب والسنة (أنظر استاذنا الدكتور أحمد شلبى : تاريخ التشريع الاسلامى ١٦٧،١٦٨) .

على كل مستطيع الباءة والنفقة ولو لم يخش الزنى . وجعل العمرة فرضا كالحج ، وجعل مكاتبة العبد حقا له فرضا لازما، اذا طلبها من سيده ، وأوجب ترك البيع وقت النداء لصلاة الجمعة ، وأوجب حق الماعون للجار .. وهذا كله بتأثير الظاهرية التى يلتزمها .

٣ ـ أما الاجماع ، وهو المصدر الثالث للتشريع عند الظاهرية ، فهو اجماع الصحابة (١٠٦) قبل تفرقهم فى الامصار ثم اجماع من يجىء بعدهم يكون تبعا لاجماعهم وما اختلف مسلمان قط فى أن ما أجمع عليه الصحابة رضى الله عنهم دون خلاف متيقن بصحته (١٠٧) ، وهو اجماع متواتر متصل برسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر علم من الدين بالضرورة لا يمكن الا أن يكون عن نص ، بل ما هو أقوى من النص وهو التوقيف ، والتعليم من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم (١٠٨) ـ فسند الاجماع فى النهاية انما هو النص .

وهذا القيد يخرج صورا كثيرة من الاجماع قالت بها المذاهب الاخرى ، مثل اجماع أهل المدينة (١٠٩) ، واجماع

---

(١٠٦) أنظر ابن حزم : المحلى ١/٧٠ ، و د. عبد الله الزايد : ابن حزم الاصولى (٢٥٤ ، ٢٥٥) .

(١٠٧) أنظر النبذ ، ص ١٣ ، و د. سلام مدكور : منهاج الاجتهاد ٧٠٩ ،وعبد الله الزايد : ابن حزم الاصولى ٢٥٢ وأنظر أبا زهرة ٣٥٤ وما بعدها .

(١٠٨) أنظر النبذ ص ١٦ والكتانى : المعجم ١٧ .

(١٠٩) أنظر النبذ ص ١٥ .

أهـل الكوفة ، وعرف الناس ، والاجماع السكوتى (١١٠) ، واجماع الاكثرية (١١١) ، واجماع أهل العصر من غير عصـر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم (١١٢) ٠

٤ ـ والدليل وهو الاصل الرابع مـن أصول الظاهرية ـ هو أمر مأخوذ من الاجماع أو النص ، مولد منهما مأخوذ من دلالتهما وليس حملا عليها ٠ أو قياسا اليها ، وذلك كان يشتمل النص على مقدمتين تركت نتيجتهما فيكون إستخراج النتيجة هـو الدليـل ، أو تطبيق عمـوم فعـل الشرط كقوله تعالى : **« إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف »** ، أو نفى معنى ضرورى يفهم نفيه من النص ، أو عدم النص على الشىء كما هـو فى بـاب الاستصحاب الـذى يعنى أن مـا ثبت فى الزمـن الماضى فالاصل بقاؤه فى الزمن الحاضر والمستقبل (١١٣) ٠

مصادر مرفوضة عنـد الظاهرية :

وقد رفض الظاهرية من مصادر التشريع الاسلامى ما ذكره الاصوليون ـ بعد الاصول السالفة الذكر ـ وهى :

---

(١١٠) أنظر النبذ ، ص ٦٤ ٠

(١١١) أنظر النبذ ، ص ١٠ ـ ١١ وأنظر : أبـا عبـد الرحمن الظاهرى : مصادر التشريع المرفوضة عند أهل الظاهر مقال بمجلة الدعوة السعودية عدد ٤١٩ (١٣٩٣/٨/٢٠) وأنظر الكتانى : المعجم ١٧ ٠

(١١٢) أنظر أبا زهرة ٣٦٤ وما بعدها ٠٠ (ابن حزم) ٠

(١١٣) أنظـر الدكتور أحمـد شلبى : تاريـخ التشريـع الاسلامى ١٦٠ ٠

١ ـ القيـــاس :

فالظاهرية ينكرون أن يكون تقدير فرع على أصل أو نظير على نظيره لمشابهته فى علة أصلا تشريعيا ،وهو يعتبر ذلك لونا من الرأى . والقول فى الدين بالرأى عنده حرام ، لان أحدا من الصحابة لـم يصحح أحد منهم القول بالرأى قط ، بل قـد ثبت قط عـن الصحابة ذم الرأى (١١٤) .

وقد أورد ابن حزم الادلة التى ساقها القائلون بالقياس، ورد عليها ، فقـد احتجوا بادلة فعليـة كقوله تعالى : « **قـل يحييها الذى أنشاها أو مرة** » وكقوله تعالى : « **فلا تقل لهـم أف ولا تنهرهما** » وكقوله تعالى : «**ولا تقتلوا أولادكم خشية** املاق » (١١٥) ففى هذه الايات أقيسة من وجهة نظرهم ...

كما أنهم احتجوا بادلة عقلية كقولهم : لما رأينا البيضتين اذا تصادمتا تكسرتا علمنا أن ذلك حكم كل بيض لـم ينكسر . فهذا قياس (١١٦) .

واحتجوا بادلة تاريخية كاجماع الصحابة على تقديم أبى بكـر قياسا على تقديـم النبى لـه . وكقتال أبى بكـر لمانعى الزكاة قياسا للزكاة على الصلاة (١١٧) .

---

(١١٤) ملخص ابطال القياس ٢٢ ويجب أن نذكر هنـا أن ابـن حـزم ينكر صحة حديث معاذ الخاص بالرأى ، أنظر مخطوط ابطال القياس ورقة (٥) .

(١١٥) أنظـر مخطوط ابطـال القيـاس ورقـة (١١) وما بعدها وملخص ابطال القياس ، ص٢٣ وما بعدها .

(١١٦) أنظر الاحكام ٨ـ١٠٢٩ والمحلى ١ـ٧٤ .

(١١٧) ملخص ابطال القياس ٢٦ وما بعدها .

وقد رد ابن حزم على هذه النصوص بدلالة اللغة ، وبايراد النصوص الاخرى المتعلقة بهذه القضايا والتى لم يستطع أصحاب القياس الاهتداء اليهـــا (١١٨) ٠

ثـم بنصوص حرم القرآن فيها القياس مثل قوله تعالى : **« اليوم أكملت لكم دينكم »** وقوله : **« ولا تقف ما ليس لك بـــه علم »** (١١٩) ٠

ولـم يكتف ابن حزم بالرد على أصحاب القياس ، بـل أتى بقضايا أوجبت ـ عقليا ـ القياس ، لكن القياس لـم يصح فيـه شرعا ، كما أن أصحاب القياس لم يقيسوها ، أو قاسها بعضهم وامتنع آخرون عن قياسها (١٢٠) ٠

٢ ـ الاستحســـان :

يعتبر الاستحسان عند الظاهرية من باب القول فى الدين بالرأى والهوى الباطل (١٢١) ، وسواء زعـم المستحسن أنـه انمـا استحسن للصالح العـام ٠٠ «المصالح المرسلـة» ٠٠٠ أو لمصلحة محددة بموقف ، فاستحسانه ـ أى رأيه الذى يميل اليه دون دليل (١٢٢) ـ مرفوض لانـه ليس استحسان فقيـه أولى بالاتباع من استحسان آخر ٠ ولو صار الدين الى هذا لكان لكل

---

(١١٨) ملخص ابطال القياس ٢٧ وما بعدها ٠ وانظـر ابـا زهرة ابن حزم ، ٤١٨ وما بعدها ٠

(١١٩) المحلى ١-٧٣ ٠

(١٢٠) أنظر الاحكام ٨-١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ٠

(١٢١) أنظر مخطوطة ابطال القياس ورقة ٢٢ ٠

(١٢٢) د٠ أحمد شلبى ، تاريخ التشريع الاسلامى(١٧١)

أحـد أن يشرع باستحسانه ما شـاء (١٢٣) . فإن أوردوا : « ما رآه المسلمون حسنا » ـ فهذا حديث موقوف . ولو صح لـما كان لهم فيه متعلق لان ما رآه المسلمون حسنا هو الاجماع ولم يقل ما رآه بعض المسلمين (١٢٤) .

٣ ـ التعليـــــل :

وكما ينكر الظاهرية القياس والاستحسان ينكرون القـول في الدين بالتعليل ، والتعليل اسـم لـما يتغير الحكم الشرعى بتغيـره (١٢٥) ..

قال ابن حـزم : (ويكفى من هذا كلـه ـ أى فى انكار التعليل ـ أن جميع الصحابة رضى الله عنهم أولهم عن آخرهم وجميع التابعين ، وجميع تابعى التابعين ليس منهم أحد قال: ان الله تعالى حكم فى شىء من الشريعة لعلة ، انما ابتدع هذا القول متأخر والقائلين بالقياس (١٢٦) .

ولسنا ننكر وجود أسباب لبعض أحكام الشريعة بل نثبتها ونقول بهـا لكننا نقول : أنها لا تكون أسبابا الا حيث جعلها الله تعالى أسبابا ، ولا يحل أن يتعدى بها المواضع التى نص فيهـا على أنهـا أسباب (١٢٧) .

---

(١٢٣) ملخص ابطال القياس ، ص ٥٠ .
(١٢٤) المكان السابق .
(١٢٥) د. عبد الله الزايد بن حزم الاصولى ٣١٨ .
(١٢٦) الاحكام ٨ ـ ١١٢٧ .
(١٢٧) المكان السابق .

وقد أورد ابن حزم ـ كما هو الشأن فى منهجه ـ ما ذكره القائلون بالعلل سواء من أدلة نقلية ، كفهمهم لقول الله تعالى: « **لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا** » وكفهمهم لآيـة الصيام : « **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كمـا كتب على الذين من قبلكـم لعلكم تتقون** » وكفهمهم لآيـة القصاص « **ولكم فى القصاص حياة** » ، وغيرها من الآيات (١٢٨) ، كما تتبع ابن حزم ما ذكره من أدلة عقلية ، ورد عليها بالتفنيد والنقـــد (١٢٩) .

٤ ـ الـــذرائـــع :

يقصد بســد الذرائع منع التوسل الى فعل الممنوع(١٣٠) وذلك كالنظرة بالنسبة للزنا وكسائر المشتبه فى حرمته ، أو ما يمكن ان يؤدى الى الحرام .

وقــد أنكر الظاهرية (الاجتهاد) عــن طريق الذرائع ، لان ذلك النوع باب من أبواب الرأى . وهو ينكر الرأى بكــل شعبــه (١٣١) .

وهو يتعقب أدلة مخالفيه ، ويورد أدلة خاصة على رأيه كمـا هى عادتـة .

---

(١٢٨) أنظر الاحكام ٨ـ١١١٤ ، وأنظر مخطوط ابطال القياس فى الورقـة وما بعدها .
(١٢٩) أنظر الاحكام ١١٢٦/٨ .
(١٣٠) د. عبد الله الزايد : ابن حزم الاصولى ٥٤٣ .
(١٣١) محمد أبو زهرة ابن حزم (٤٢٩) .

وقــد قصر النصوص التى تفيد المنــع من الذرائع عــلى الــورع والــحصن ، لا على الايجاب واللزوم ، واستشهد عــلى رفض الاخــذ بالذرائع بآيات منهــا : « **ولا تقولوا لمــا تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام** » ، ومنها : «**وقد فصل لكــم ما حــرم عليكم** » (١٣٢) .

وقد طبق ابن حزم هذه المعالم الاصولية فى منهجه ــ حين قــدم لنــا مذهبا فقهيا (حزميا) متكاملا عبر موسوعته التى وصلتنا ، وهى (المحلى) فضلا عن الاحكام فى أصول الاحكام. وفضلا عن رسائله المطبوعة والمخطوطة .

أشهــــر الظاهريين فى التاريــخ

مــن الطريف أن داود الظاهرى (أبا سليمان) منشىء المذهب الظاهرى ليس أشهــر الظاهريين فى التاريخ ، وهــذه نادرة ينفرد بهــا هذا المذهب ، فابن حزم الاندلسى يكاد يكون أكثر شهرة بظاهريته ومنافحته عنهــا مــن أبى داود مؤسس المذهب ، ولعل سبب هذا أن مذهب الظاهرية كــاد يندثر لولا ظهــور موسوعته الظاهرية المحلى فى الفقــه وكتابه فى الاصول (الاحكام فى أصــول الاحكام) اللذين أصبحا دستور المذهب فى الاصــول والفقــه .

ومن الظاهرية المتأثرين بداود الظاهرى فى الاندلس ، على الاقل فى عدم التقيد بمذهب : (بقى بن مخلد) الــذى انتقل الى بــلاد المشرق وتاثــر بالامام أحمــد ، وعاصر اقامــة

---

(١٣٢) أنظر د. عبد الله الزايد : ابــن حــزم الاصولى ٥٥٨ ، ٥٦٥ .

داود الظاهرى فيها ، اذ كانا فى سن متقاربة . وقد توفى (بقى) سنة ٢٧٦هـ ، ومن الظاهرية الاعلام كذلك ، والمعاصرين لداود المتأثرين به الامام الحافظ (أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيغ) ، وكان ابن وضاح أكثر افصاحا عن ظاهريته من (بقى بن مخلد) ، وتوفى سنة ٢٨٦هـ .

ومنهم (قاسم بن أصبغ) تلميذ بقى ووضاح ، وهو(قاسم بن أصبغ ابن محمد بن يوسف أبو محمد البيانى) ، كان من أعلام الظاهرية بالاندلس عمل مصنفا فى السند على نهج أبى داود وتوفى سنة ٣٤٠ هـ .

ومنهم (عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال) المتوفى سنة ٦٧٢ هـ .

ومنهم القاضى (منذر بن سعيد البلوطى) المتوفى سنة ٣٥٥ هـ (١٣٣) والمعروف باتجاهه الظاهرى ، وقد أتاحت له مكانته فى بلاط عبد الرحمن الناصر ، وكان فى توليه قضاء الجماعة دعم مكانة هذا المذهب الجديد (١٣٤) وان كان لابن حزم وحده (أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ت٤٥٦ هـ) ـ أكبر الفضل فى بقاء هذا المذهب ، ولولاه لاندثرت فروع هذا المذهب وأصوله فلا تعرف منها الا ما هو مبعثر فى بطون كتب التفسير أو ما يأتى استطرادا فى كتب المذاهب الاخرى (١٣٥) .

---

(١٣٣) أنظر ابن حزم فى قرطبة لبلاسيوث ، ص١٣٣ .

(١٣٤) الخشنى : قضاة قرطبة ١٢٠ ، وأبو زهرة ، وابن حزم ٢٧١ .

(١٣٥) د. سلام مدكور : مناهج الاجتهاد فى الاسلام ٧٠٢ ٧٠٣ .

وابن حزم هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى (ت ٤٥٧) وهو مؤلف لنحو أربعمائة رسالة ، ومن أشهر كتبه المطبوعة بعد المحلى والاحكام (الفصل فى الملل والنحل) وكتاب جمهرة أنساب العرب ، وحجة الوداع ، وجوامع السيرة ، وطوق الحمامة ، ورسالة فى الاخلاق ونقط العروس ، وغيرها .

وكتاب (المحلى) هو موسوعته فى الفقه الظاهرى والفقه المقارن على السواء ــ وهذا الكتاب العظيم بأجزائه الكثيرة ــ قد استغرق سائر أبواب الاصول والفقه ، بدءاً من باب « التوحيد » والايمان والقواعد الحزمية فى الاصول ، والى أن فرغ من سائر أبواب العبادات والمعاملات فى مسائل أهل الذمة وأنواع التعذير .

وقد حمل هذا الكتاب بين دفتيه مذهب ابن حزم الفقهى الذى ندعوه «بالحزمية» الظاهرية مقارنا اياه بالمذاهب الاخرى ولم تكن المنية قد تركت لابن حزم فرصة اتمامه ، فانه لم يكتب فيه الا (٢٠٢٨) مسألة من مجموع مسائله البالغه (ألفين وثلاثمائة وأثنتى عشرة مسألة) والمسائل الباقية وهى تبدأ من مسألة رقم (٢٠٢٩) « وأما الدية فى قتل الخطأ فعلى العصبية وهم العاقلة » (١٣٦) . اختصرها أبنه أبو رافع من كتاب الايصال الذى لم يصل الينا » .

وانه لمما يجعلنا ندرك مدى جهود ابن حزم فى ميدان الفقه أن المحلى الذى تبلغ صفحاته (٧٠٥٠) صفحة من القطع

---

(١٣٦) أنظر ص ١٢ ، ص ١٠٦ .

المتوسط ، ويقع في ثلاثة عشر جزءا (١٣٧) انما كتبه ابن حزم « شرحا مختصرا للمسائل التى جمعناها في كتابنا الموسوم بالمحلى نقتصر فيه على قواعد البراهين بغير اكثار ، ليكون مأخذه سهلا على الطالب والمبتدىء » (١٣٨) ٠

ومع ذلك ، فهذه الموسوعة (المحلى) أعتبرت من أعظم المدونات لاجتهادات السلف رضوان الله عليهم ، سواء في باب العقائد أو التشريعات الفرعية ٠ ان كان من الضرورى جمع المسائل المتشابهة الى بعضها ، وقد ضمت من آراء السلف (١٢٩٠٣) آراء ، نسبت الى ٥٤٦ عالما سلفيا ، منهم من ذكر له ابن حزم أكثر من ستمائة رأى ، ومنهم من لم يذكر له الا رأيا واحدا ، ويضاف الى هذه الاراء (٢٥٠) مسالة(١٣٩) لفريق من الصحابة لم يعرف لهم فيها مخالف (١٤٠) ٠

---

(١٣٧) حسب طبعة مكتبة الجمهورية بمصر بتصحيح زيدان أبو المكارم حسن وحسن زيدان طلبة سنة ١٩٧٢م (ومنها أكثر من ستة آلاف صفحة كتبها ابن حزم بخط يده ، والباقى اختصره من الايصال ابنه أبو رافع) ٠

(١٣٨) المحلى ١ ـ ٣ بتصرف ٠

(١٣٩) أنظر محمد رواسى قلعجى : ابن حزم في المحلى مقال بمجلة (حضارة الاسلام) الدمشقية عدد (٦ شعبان ١٣٨٦ هـ) ٠

(١٤٠) أكثر أصحاب الاراء في المحلى هم على الترتيب: عمر بن الخطاب وله ٦٢٣ رأيا ، وعطاء وله ٦٠٢ رأيا ، والحسن البصرى وله ٥٩٥ رأيا ، وابراهيم النخعى وله ٥٦٠ رأيا ، وأبو سليمان وله ٥٤٠ رأيا ، أنظر المرجع السابق ٠

ومن أبرز الظاهرية ابن داود الظاهرى نفسه محمد بن داود ويكنى أبا بكر كان فقيها على مذهب أبيه ، فاضلا بارعا أديبا شاعرا اخباريا ، أحد الظرفاء والمستورين . له من الكتب الفقهية كتاب الانذار ، وكتاب الاعذار وكتاب الوصول الى معرفة الاصول ، وكتاب الايجاز والرد على ابن شرشير ، والرد على أبى عيسى الضرير ، وكتاب الانتصار من أبى جعفر الطبرى .

ومنهم ابن جابر بن ولد الداوود بن أبى اسحاق ابراهيم بن جابر ، من أكابر الظاهرية ، وله من الكتب كتاب الاختلاف ،ولم يعمل أكبر منه ، وأصحابه يستحسنونه(١٤١) .

ومنهم ابن المفلس ، وهو أبو الحسن عبد الله بن أحمد المفلس واليه انتهت رياسة الداوديين فى وقته ، ولم ير مثله فيما بعد ، وكان عالما فاضلا نبيلا صادقا ثقة مقدما عند جميع الناس ، ومنزله ببغداد على نهر يقصده العالم من سائر البلدان ، توفى لاربع خلون من جمادى الاخر سنة أربع وعشرين وثلاثمائة .

وله من الكتب : كتاب الموضح جوابات ، كتاب المزنى، كتاب المجنح ، كتاب المفصح ، كتاب أحكام القرآن ، كتاب الطلاق ، كتاب الولاء .

---

(١٤١) فهرست ابن النديم ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٧ المطبعة الرحمانية بمصر وأنظر السمعانى : الانساب ، ج ٩ ، ص : ١٢٩ ـ ١٣٢ ، طبع دار المعارف العثمانية حيدر أباد الهند ١٣٩٨ هـ .

ومنهم المنصورى وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن صالح ، على مذهب داود من أفاضل الداوديين · وله كتب جليلة حسنة كبار منها : كتاب المصباح كبير ، كتاب الهادى ، كتاب النير ·

ومنهم (الرقى) وهو أبو سعيد ، على مذهب داود من علماء المذهب ، وله من الكتب : كتاب الاصول ، ويشتمل على مائة كتاب على مثال كتب داود ولا حاجة بنا الى ذكرها ، وله بعد ذلك كتاب شرح الموضح ·

ومنهم (النهربانى) واسمه الحسن بن عبيد أبو سعيد ، وله من الكتب كتاب ابطال القياس · ومنهم (ابن الخلال) ويكنى أبا الطيب ، وله من الكتب : كتاب ابطال القياس كتاب النكت ، كتاب نعت الحكمة فى أصول الفقه يحتوى على عدة كتب · ومنهم (الرباعى) واسمه ابراهيم بن أحمد ابن الحسن ، ويكنى أبا اسحاق من علماء الداوديين وكان قريب العهد ، وخرج من بغداد الى مصر وبها مات رحمه الله · وله من الكتب : كتاب الاعتبار فى ابطال القياس · ومنهم (حيدر) ويكنى أبا الحسن وكان من الاخيار وفقيها على مذهب أصحابه ومنهم (القاضى الحزرى) وهو أبو الحسن عبد العزيز بن أحمد الاصفهانى الحزرى ، أحد علما (الداوديين) فى عصرنا والمتمكنين من المذهب من أفاضل أصحابه ومصنفيهم ، ومولده سنة ··· وولاه عضد الدولة قضاء الربع الاسفل من الجانب الشرقى من مدينة السلم والى وقتنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلثمائة · وله من الكتب : كتاب مسائل الخلاف (١٤٢) ·

---

(١٤٢) (الفهرست لابن النديم ، ص : ٣٠٣ – ٣٠٧) المطبعة الرحمانية مصر ·

ومنهم صاعد بن أحمد الجياني الاندلسي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ، وتلميذ ابن حزم وصاحب طبقات الامم (١٤٣) . ومنهم طاهر ابن مفوز زميل ابن حزم في الطلب . ومنهم ابن الطبنى أبو مروان (عبد الملك بن زيادة الله) المتوفى في ربيع الاخر سنة ٤٥٧ هـ . وكان من أصدقاء ابن حزم وتلامذته (١٤٤) . ومنهم خلف بن هارون القطينى ، لـه شعر مدح فيه ابن حزم (١٤٥) ومنهم أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن البطروشى ، روى كتب ابن حزم عن ابنه أبى رافع أسامة (١٤٦) . ومنهم أبو عبد الله محمد ابن فتوح الحميدى الظاهرى المتوفى سنة ٤٨٨هـ . تلميذ ابن حزم وصاحب (الجذوة) . ومنهم أبو محمد العربى الوزير والد أبى بكر بن العربى ، صحب ابن حـزم وتتلمذ عليـه . وأجازه ابن حزم (١٤٧) . ومنهم محمد بن خلف الخولانى أبو عبد الله روى عن ابن حزم وكان حيا سنة ٤٩٤ هـ (١٤٨) . ومنهم أحمد بن سعيد بن حزم (حفيد أبى محمد) نزيل شليكان

---

(١٤٣) يـرى العارف ابن حـزم أن روحـه تسـرى فى طبقات الامم كلها وتعتبر ترجمة صاعد لاستاذه ابن حزم مصدر كثير مـن التراجم ، أنظر ١٠١-١٠٢ وأنظر ترجمة صاعد فى الضبى : بغية الملتمس ص ٣٢٣ وقد أخطأ فى تاريخ وفاته فجعله سنـة ٣٦٢ وهـو من أخطاء النسخ .

(١٤٤) أنظر الحميدى فى الجذوة ص ٣٨٤ وابن بشكوال فى الصلة ٢-٦٠٤ وما بعدها وابن الابار فى التكملة ٢-٧٠٠ .

(١٤٥) محمد أبراهيم الكتاني : مؤلفات أبـن حزم ، مقال بمجلة الثقافة المغربية العدد الاول .

(١٤٦) ياقوت : معجم البلدان مادة بطروسن .

(١٤٧) ياقوت : معجم الادباء ٢٤٣/١٢ طبع القاهرة .

(١٤٨) المراكشى : الذيل والتكملة ، ص ١٨٨ .

ظاهريا كجده وكان داعية إلى مذهب جده ، توفى فى حدود ٥٤٠ بعد محنة عظيمة (١٤٩) . ومنهم محمد بن أحمد بن محمد بن حسن ، روي عن ابن حزم ، وهو فى عداد أصحابه ، كان شديد العناية بالرواية ضابطا مقيدا كاتبا بليغا توفى فى حدود الخمسين وأربعمائة . ومنهم بكير بن عبد خلف بن سعيد أبو عمرو وكان فقيها على مذهب أهل الظاهر اديبا شاعرا ، إخذ عنه باشبيلية سنة ٥٠٥ (١٥٠) . ومنهم خضر بن محمد بن نمير النجيبى الاشبيلى ، كان فقيها على مذهب أهل الظاهر يدافع عنه (١٥١) . ومنهم أحمد بن على ابن الفضل بن على ابن أحمد بن سعيد بن حزم يكنى أبا عمر توفى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة (١٥٢) . ومنهم أحمد بن سعيد بن على بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسى يكنى أبا عامر . كان فقيها على مذهب (جده أبى محمد الظاهرى) عارفا مصمما عليه صلبا فيه ، مجادلا عنه (١٥٣) . ومنهم أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن مروان التلمسانى قاضى الجماعة فى عهد الخليفة الموحدى يعقوب والخليفة الناصر والموحدى ، وقد عرف بتعصبه لابن حزم وتوفى سنة ٦٠١ (١٥٤) . ومنهم ابن دحية

---

(١٤٩) أنظر : أبو عبد المراكشى : الذيل والتكملة ٣٧٨، ٣٨ .

(١٥٠) أنظر ابن الابار : التكملة ١ - ٢١٧ .

(١٥١) المرجع السابق ٣١١ ، وأنظر بالنثيا تاريخ الفكر الاندلسى ٢٣٨ .

(١٥٢) المرجع السابق ٥٤ .

(١٥٣) المرجع السابق ٥١ .

(١٥٤) أنظر أيضا سعيد الاندلسى : الغصون اليانعة ، ص : ٣١ - ٣٥ .

فى المطرب من أشعار أهل المغرب (١٥٥) . وهو من الظاهرية بل ويعرف بالظاهرى المذهب (١٥٦) . ومنهم الاندلسى أبو محمد عبد الله بن محمد بن مرزوق اليحصبى الظاهرى ـ الاندلسى نزيل مصر ودفين دمشق ، كانت له عناية عظيمة بتحليل كتب أبى محمد ورسائله (١٥٧) . ومنهم الامير ناصر الدين محمد جنكلى بن البابا أحد أمراء الدولة الناصرية بالقاهرة توفى سنة ٧٦٤ هـ . كانت له عناية بكتب ابن حزم كثير المطالعة لها . ومنهم محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن أبى بكر ابن جعفر بن خليل العبدرى (من طبقة تلامذة الحافظ الذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ (١٥٨) . وهو صاحب القدح المعلى فى اكمال المحلى ، والمورد الاحلى فى اختصار المحلى وقد كان من محبى ابن حزم والمدافعين عنه .

ولا يزال الظاهريون يمتدون فى التاريخ ، ويكسبون أنصارا ، ويؤثرون ـ بصفة اجمالية ـ فى مجرى التاريخ التشريعى الاسلامى . ولله الامر من قبل ومن بعد .

---

(١٥٥) أنظر صفحات : (٦٢ ـ ٦٥ ـ ١٥٣ ـ ١٦٠ ـ ٢١٥ ـ ٢٣١ وغيرها) .

(١٥٦) المطرب ، ص (س) .

(١٥٧) الدكتور احسان عباس أخبار وتراجم أندلسية ترجمة رقم ٢٨ ط ـ بيروت ٦٣ .

(١٥٨) الاستاذ محمد ابراهيم الكتانى حول كتاب المورد الاحلى ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الرابع ، ج ١ ، مايو سنة ١٩٥٨ م .

في تاريخ العلوم الاسلامية

الرسالة

للامام الشافعي

(أول كتاب في علم الاصول)

قرأت فى وقت واحد نسختين مختلفتى التحقيق لكتاب « الرسالة » للامام المطلبى الفقيه محمد بن ادريس الشافعى (١٥٠ – ٢٠٤ هـ) رحمه الله رحمة واسعة .

والنسختان المختلفتا التحقيق احداها قام على تحقيقها وشرحها الاستاذ أحمد محمد شاكر ، والثانية للاستاذ سيد كيلانى .

ومن التجنى الكبير محاولة المقارنة بين التحقيقين اذ أن النسخة الثانية منهما لا تكاد تتحقق فيها أدنى شروط التحقيق العلمى ، فضلا عن خلوها من الجهد تقريبا ، وحسبنا للاستدلال السريع على هذا أن النسخة الاولى التى حققها الاستاذ المرحوم أحمد شاكر تقع فى ستمائة وسبعين صفحة – فضلا عن مقدمة فى نحو مائة صفحة .. والنسخة من نفس الحجم الذى تتكون منه النسخة الثانية التى لا تتجاوز عدد صفحاتها مائتين وخمسين صفحة ، مع أن النص الاصلى واحد ولا توجد فى احداهما زيادة علمية – عن النسخة الاخرى .

فمن الواضح أن الفرق كله فى التحقيق الذى أخلص فيه الجهد ... العلامة الشيخ شاكر – جزاه الله خيرا –

ولكتاب الرسالة فى تاريخ العلوم الاسلامية أهمية خاصة ، اذ هو أول كتاب فى علم أصول الفقه ، بل فى علم الاصول مطلقا . ويعتبر الامام الشافعى بذلك «أول من صنف فى أصول الفقه .. صنف فيه كتاب الرسالة ، وكتاب أحكام القرآن ، واختلاف الحديث ، وابطال الاستحسان ، وكتاب جماع العلم،

وكتاب القياس » « فنسبة الشافعى الى علم الشرع كنسبة أرسطاطاليس الى علم العقل » وكنسبة العروض الى الخليل ابن احمد الفراهيدى ، ونسبة الاجتماع فيما بعد الى ابن خلدون ..

الكتاب اذن ليس كتابا عاديا فى حركة الفكر الاسلامى بل هو معلم تراثى واضح على الطريق ، هو جدول استطاع أن يشق له طريقا انحدر به فى مجرى تاريخ الفكر الاسلامى مكونا له وسائل خاصة وقضايا خاصة ومعالم اجتهادية خاصة، ومن المعلوم أن البداية الواضحة التاريخية لاى علم انما هى حصاد تطور مبعثر طويل ، عبر عن نفسه فى أكثر من صورة، وان لم يكن اعطى هذه الصورة مكانها الصحيح ، وأطلق عليها أسمها العلمى المنظم .

ويلخص لنا الفخر الرازى فى « مناقب الشافعى » تطور البحث فى علم الاصول حتى «الرسالة» فيقول : «كانوا قبل الامام الشافعى يتكلمون فى مسائل أصول الفقه ، ويستدلون ويعترضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع اليه فى معرفة دلائل الشريعة ، وفى كيفية معارضتها وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعى علم أصول الفقه ، ووضع للخلق قانونا كليا يرجع اليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع » .

كان الشافعى نفسه يعرف قيمة كتاب الرسالة من حركة العلم الاسلامى وكان يطلق على الكتاب اسم « الكتاب » «كتابى» أو «كتابنا» ... ولا تخفى دلالة التسمية على ادراك الشافعى للعمل العظيم الذى قام به ، ولم تكن تسمية الكتاب «بالرسالة» الا مرحلة متأخرة فرضت نفسها على

الكتاب ، بسبب ارسال الشافعي له الى عبد الرحمن بن مهدي الامام الحافظ الذى كان ينعته الشافعي بالتفرد فى دنيا العلم .

وقـد الف الشافعى الكتاب مرتين : الرسالة القديمة ويبدو أنـه ألفها فى مكة ، والرسالة الجديدة ـ التى بيـن أيدينا ـ وقـد ألفها فى مصر . ومن الراجح أن الرسالة الجديدة هى ما تبقى فى ذهن الشافعى مـن الرسالة القديمـة (المفقودة) وهى كذلك الحصاد الاضافى لرحلة العلـم فى بغـداد وفى مصر وفيما بينهمـا .

وقد تعددت صور الاهتمام بالكتاب منـذ ألفـه الشافعى وألقاه على تلامذته الذين اقترن الكتاب بواحد من أشهرهم وهو «الربيع بن سليمان» الذى اعتبر أصله أصح الاصول للكتاب ـ وكان لشدة اشتهاره بسماع الكتاب ـ يجيـز نسـخ كثيـر مـن الذيـن استمعوه ونقلـوه ...

وقـد ذكر المرحوم الشيخ أحمد شاكر أكثـر مـن أربعين سامعا للكتاب تولوا نسخه وتنظيمه بطريقتهم الخاصة .

أمـا الذين تولـوا شرحـة فكثيرون حصر منهـم المحقق خمسة هم : أبو بكر الصيرفى محمد بن عبد الله ، وأبو الوليد النيسابورى صـاحب المستخرج عـلى صحيح مسلـم ، والقفال الشاشى محمد بـن على بـن اسماعيل ، وأبو بكـر الجوزقى النيسابورى ، وأبو محمد الجوينى الامام المعروف .

● ● ●

يقـع الكتاب فى ثلاثة أجزاء لا تفصل بينها فى الحقيقـة فواصل موضوعية ، بل أنها لتتصل اتصالا مباشرا يجعل عملية

التقسيم الى أجزاء لا تعدو أكثر من محافظة على الاصل ، ولا فائدة واضحة لها الا من حيث التيسير الكمي ، وحسبنا أن نعرف ان الباب الثانى يبدأ بعبارة «فان قال قائل» ، وأن الباب الثالث يبدأ بعبارة « قال ٠٠ ولم يحظر » لندرك أن عملية الفصل لا تتصل بالموضوعية أو المنهجية فى البحث بصلة ٠

وكما هو المنتظر من رجل كالشافعى فى كتاب تراثى كالرسالة يستهل الكتاب بأكثر من عشر صفحات فى حمد الله وشكره ، والاعتراف بواحدانيته وفضله ، وما يتصل بذلك من اصناف الناس ومواقفهم تجاه عبادة الله المتفضل بالعلم ، الداعى ـ على لسان رسله الى الهدى والرشد «والناس فى العلم طبقات موقعهم من العلم بقدر درجاتهم فى العلم به ، فحق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم فى الاستكثار من علمه ، والصبر على كل عارض دون طلبه واخلاص النية لله فى استدراك علمه نصا واستنباطا ، والرغبة الى الله فى العون عليه ، فانه لا يدرك خير الا بعونه » ٠

هذه الديباجة ، أو ما يمكن تسميته (الخطبة) هى خصيصة من خصائص تراثنا ، بل وحضارتنا ، فاقطاب هذا التراث ـ وهذه الحضارة ـ ينطلقون من نقطة الاعتراف بأن الكمال العلمي مطلب عسير ، بل هو مطلب غرورى يجب أن يتنزه العلماء عنه ، ليتركوا للافكار الاخرى فرصة الحياة والاستمرار والتقدم ٠ أنهم متواضعون يبذلون «غاية جهدهم ، ويصبرون على كل عارض» لكنهم مع ذلك « مخلصو النية لله راغبون اليه فى العون » ٠٠ انه الفرق بين المنهج العلمى ، وبين المنهج الجدلى ٠٠٠ بين المنهج الذى يضع نفسه كحلقة فى سلسلة التقدم ، وبين المنهج الذى يجعل نفسه ـ دون سند

ـ قمـة التقدم ، وينفى بالتالى من حركة التاريخ كـل ما لا يتساوى مع غروره ، ومـع جموده ، ومع سذاجته !!

وتبدأ رحلة الكتاب بمحاولة تحديد (كيفية البيان) ولعل النظرة العابرة لهذا العنوان توحى بالشروط المطلوبة فى عملية التشريع ، فمن لـم يعرف البيان العربى ـ الذى يعتبر القرآن ببلاغتة ولغته قمته ـ بكل ما يتطلبه هـذا البيان من عناصر المعرفة ، فليس لـه أن يقحم نفسه فى باب استنباط الاحكام أو التعقيـد ، اذ هـو مفتقـد لاول الشروط المطلوب تحقيقها فى « الاصولى » .

والبيان اسم جامع لمعان مجتمعة الاصول، متشعبة الفروع فمنها ما أبانه الله لخلقه نصـا مثـل جمـل فرائضه كالاوامر الاجمالية المتعلقة بالصلاة والزكـاة والصيام والحـج وكالايات القرآنية الواضحة الدلالة «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة واتممناها بعشر فتم ميقات ربـه أربعين ليلة » فالدلالة النصيـة واضحة وليس وراءها شىء . ومن هـذه المعانى ما أحكم الله فرضـه بكتابه ، ثـم بين كيف هو على لسان نبيه مثل عـدد الصـلاة والزكـاة ووقتهما .

ومنها ما سنه الرسول عليه الصلاة السلام مما ليس فيـه نص حكم كالنوافل المختلفة ، ومن البديهى أنه « من قبل عن رسول الله فبفرض من الله قبل » .

ومنها ما سنه الرسول عليه الصلاة والسلام مما ليس فيه نص حكم الاجتهاد ، كما ابتلى طاعتهم فى غيـره ممـا فرض عليهم ، مثل ضرورة اجتهادهم فى تحديد القبلة فى الصلاة بعد أمـر الله لهـم بالاتجاه اليها .

والاساليب القرآنية « تدل على أن ليس مـن كتاب الله شيء الا بلسان العرب » « فلسان العرب أوسع الالسنة مذهبا وأكثرها الفاظا ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه انسان غير نبى ولكنه لا يذهب منـه شيء على عامتها (أى على مجموعها) حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه » ٠

ان العرب قـد تطلق الكلام عامـا تريد به العموم الـذى يدخل فيـه الخصوص وقـد تطلقه عاما يجمع العام والخاص معا ، وقـد تطلقه عام الظاهر تريد بـه كلـه الخاص ، وقـد تطلق الجملة لا يبين معناها الا سياقها ، وكل هذه الاساليب واردة فى القرآن وبالتالى ، فليس بمستطيع فهم النص القرآنى فضلا عن الاستنباط والفتوى ، مـن لـم يكـن ملمـا بهـذه الاستعمالات – وبغيرها – فى اللسان العربى ٠

● ● ●

وتشغل قضية الناسخ والمنسوخ حيزا كبيرا من الرسالة ٠ ويعتبر الشافعى من أبـرز من وضعوا هـذه القضية فى اطارها الصحيح ٠ ولعل حسه الاسلامى كان يوحى اليه بأن المبشرين والمستشرقين لن يلوكوا قضية من قضايا الفكر الاسلامى مثـل الحاحهم على قضية الناسخ والمنسوخ ، ظنا منهم أنها مدخـل للطعن فى الاسلام ٠

وبما أنـه يكاد يكون من المستحيل على هؤلاء العجم ، الذين لا يعرفون مـن لغـة القرآن – اذا عرفوا – الا قشـورا لا تغنى ٠٠٠ من المستحيل عليهم الدراسة الشاملة الموضوعية للنصوص القرآنية وللاحاديث النبوية المتصلـة بهـا ، وأيضـا لقواعد البيان العربى التى ألمعنا الى طرف منها ، فانه كذلك

يكاد يكون من المستحيل أن يستوعب هؤلاء وأمثالهم قضية الناسخ والمنسوخ ، وان يضعوها فى اطارها الصحيح ، مدركين فى الوقت نفسه الاهمية المرحلية والتاريخية والاصولية للقضية .

ويضع لنا الشافعى معالم بارزة على طريق هذه القضية، لنسير – كأصوليين – فى طريق الاستنباط على بينة من الامر . انه يقول : « ان الله خلق الخلق لما سبق فى عمله مما أراد بخلقهم وبهم ، (٠٠٠) وأنزل عليهم الكتاب تبيانا لكل شىء (٠٠٠٠٠) وفرض فيه فرائض أثبتها وأخرى نسخها : رحمة لخلقه ، وبالتوسعة عليهم ، زيادة فيما ابتداهم به من نعمة وأبان الله لهم أنه انما نسخ ما نسخ من الكتاب بالكتاب ، وأن السنة لا ناسخة للكتاب ، وانما هى تبع للكتاب بمثل ما نزل نصا ، ومفسرة معنى ما أنزل الله منه جملا » .

« وهكذا سنة رسول الله : لا ينسخها الا سنة لرسول الله ولو أحدث الله لرسوله فى أمر سن فيه غير ما سن رسوله لسن (الرسول) فيما أحدث الله اليه ، حتى يبين للناس أن له سنة ناسخة للتى قبلها مما يخالفها وهذا مذكور فى سنته صلى الله عليه وسلم » « ولو نسخت السنة بالقرآن لكانت للنبى فيه سنة تبين أن سنته الاولى منسوخة بسنته الاخرة ، حتى تقوم الحجة على الناس بأن الشىء ينسخ بمثله » (١) .

ويطبق الشافعى فهمه ومقاييسه للناسخ والمنسوخ على كثير من الاحكام الدينية التى دار حولها بعض الخلاف فى الفهم كصلاة الليل وفرضية الصلوات الخمس ، والتفرقة بين قضاء الصلاة والصوم بالنسبة للحائض ، وعقوبة الزانى المحصن ،

وقضية الوصية من الارث أو القرابة ، وقضية اللعان والحكم السابق فيها ، وغير ذلك من الامور .

● ● ●

يتتبع الشافعى « جمل الفرائض » من صلاة وصيام وزكاة وحج، ويبين ما أجمل القرآن فيها وما فصلته السنة ، ويطبق – وهو ماض فى بحثه فى الفرائض – نظرته الى الناسخ والمنسوخ ، ومما لا شك فيه أن نظرة واحدة الى «الصلاة» – أو الدور الذى قامت به السنة فى تحديدها على وجهها الاكمل وفى تحديد أنواع النوافل – ترينا مدى العلاقة الوطيدة بين الكتاب والسنة ، والشىء نفسه يمكن أن يطبق على الزكاة .. وعلى بقية أركان الاسلام .. وعلى التشريعات الاسلامية كعدة المرأة ومحرمات النساء ومحرمات الطعام « وكل ما سن رسول الله مع كتاب الله من سنة فهى موافقة كتاب الله فى النص بمثله وفى الجملة بالتبيين عن الله ، والتبيين يكون أكثر تفسيرا من الجملة ، وما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس فيه نص كتاب الله فبفرض الله طاعته عامة فى أمره تبعناه(٢) « وأما الناسخة والمنسوخة من حديثه ، فهى كما نسخ الله الحكم فى كتابه بالحكم غيره من كتابه عامة فى أمره ، وكذلك سنة رسول الله تنسخ لسنته (٣) » .

ويضرب الشافعى أمثلة كثيرة لنسخ السنة بالسنة كنسخ الرسول صلى الله عليه وسلم لتحريم أكل لحوم الضحايا بعد ثلاثة أيام ونسخه لحد الزانى المحصن بالجلد قبل الرجم .. ثم نسخ عملية الجلد مكتفيا بالرجم ، والصلاة قعودا خلف الامام القاعد . وغير ذلك من المسائل التى تردد الحكم فيهما بين مسلكين نسخت فيهما السنة السنة .

ويرى الشافعى أن القول بالنسخ لا يجب أن يطلق هكذا دون أن يكون هناك نظر دقيق للرواية وللراوى ولتاريخ الحكم وملابساته ، فلربما كان الحكم مبتورا وفقا للقدر الذى تلقاه صاحبه عن الرسول أو عن الصحابى .. بينما قدر لاخرين أن يتلقوا نصا آخر أكمل وأوضح .. فكل يرى أنه على حق .. وهو بالنسبة لما سمعه ـ على حق فعلا . ولا خلاف بين الرأيين فى الحقيقة .

« وثمة وجه آخر مما يعد مختلفا وليس بمختلف ، وهو أن يحتمل الامر معنيين أحدهما أولى من الاخر ، وكلاهما ـ جائز ـ فى الحقيقة ، لكن الذى يرجح أولية أحدهما أن يكون أشبه بآية فى كتاب الله ، مع بقاء جواز الاخر .

وأيضا ، ليس هناك خلاف حين تختلف هيئة التطبيق وظروفه ، كالنهى عن استقبال القبلة عند الغائط والبول فى الصحراء ، فان هذا النهى لا يطبق عند الحضر ، ومراحيضه الموجودة بالمنازل ، بحال من الاحوال » .

والامر نفسه يقال حين تختلف شروط تنفيذ الحكم أو نتيجته أو يختلف الحكم عموما وخصوصا ، أو يكون للحديثين وجهان يمضيان فيهما أو غير ذلك فان اختلاف الحكم هنا لا يعنى أن هناك ناسخا ومنسوخا كما لا يعنى أن هناك اختلافا حقيقيا .

« أما اذا أثبت عن رسول الله الشىء فهو اللازم لجميع من عرفه ، لا يقويه ولا يهونه شىء غيره ، بل الفرض الذى على الناس اتباعه ، ولم يجعل الله لاحد معه أمرا يخالف أمره».

وبهذه العبارة الحاسمة الواضحة يختم الشافعى دراسته لاحدى القضايا الاصولية الكبرى (الناسخ والمنسوخ) ، ملما بكل

أبعادهـا ، اذ لا يجـوز للاصولى أن يدخـل بـاب التقنيـن والاستنباط ، وهـو غيـر مجهز بعلم الناسخ والمنسوخ ٠٠ أى بتاريخ التشريع وفلسفته ، فضلا عـن أن يكـون مجهزا بالاداة الكبرى لكل باحث فى علوم هذا الدين ٠٠٠ وهى البيان العربى بأبعـاده المختلفـة ٠

● ● ●

فى الصفحات التالية يتحدث الشافعى عن مصادر التشريع الاسلامى ٠٠ وبعض القضايا المتصلة بها ـ عدا القرآن والحديث اللذين تناولهما ـ وهو فى هذه الصفحات اكثر وضوحا والتزاما بوحـدة الموضوع ، اذ أن تـداعى المعانى ونزعـة الاستطراد خصيصتان من خصائص الشافعى ، يلمسهما القارىء على نحو واضح فى الصفحات الفائتة ٠ وهما فى الصفحات القادمة أخف حـدة وأقل بروزا ٠

يقدم الشافعى بين يدى تناوله لمصادر التشريع عدا القرآن والحديث ثلاث قضايا ٠٠ أولاها حول صفة نهى الله ونهى رسوله ، ويرى أن نهى الله أو رسوله يجمع معنيين ٠٠٠ أن يكون الشىء الذى نهى عنه محرما فى الاصل لا يحل الا بوجه دل الله عليه فى كتابه أو على لسان نبيه كتحريم كـل النساء الا أن يحلهن الله بالنكاح أو ملك اليمين ٠٠ أو أن يكون الشىء الـذى نهى عنـه حلالا فى الاصل لكـن نهى الله المرء فيـه عن شىء معين كالنهى عن الاكل من أعلى الصحفة فان الاكل فى الاصل حلال ٠

والقضية الثانية عن «العلم» وما يجب على الناس فيه ، وهو يوجز ذلك بأن العلم علمان : علم عامة لا يسع بالغا أن يجهله كالصلوات الخمس والصوم وغيرهما ، وعلم خاصة كفروع

الفرائض والاحكام مما ليس فيه نص كتاب ولا فى أكثـره نص سنـة فهو فرض كفاية .

وثالثا القضايا التى عرض لها الشافعى بين يـدى تناوله لمصادر التشريع عدا القرآن والسنة هى « خبـر الواحد عـن الواحـد حتى ينتهى بـه الى النبى أو مـن انتهى بـه اليـه دونـــه » بشرط أن يكون كل محدث منهم ثقة صادقا عاقـلا عالمـا ملتزما بنص الرواية حافظا بريئـا مـن التدليس .. و « من قال على الرسول ما لم يقل فليتبوأ مقعده من النار » ولا يستدل على أكثر صدق الحديث وكذبه الا بصدق المخبـر وكذبـه . وثمة عشرات الامثلة تؤكد صدق خبر الواحد ، ولعل تكليف الرسول لام سلمة بأن تجيب المرأة التى سألته عن حكم تقبيل الرجل أهله فى رمضان .. لعل هذا التكليف خير دليـل على امكانية صدق خبر الواحد ، ومثله تكليف الرسول رجـلا أن يخبر أهل قباء بتحول القبلة الى المسجد الحرام واستجابة الناس له ـ دون الرجوع الى الرسول ـ مع أن ذلك فرض ـ ومعلوم أن الانبياء كانوا آحادا كلفهم الله بتبليغ الرسالة وأمـر الناس بتصديقهم .

« ولا نستطيع أن نزعـم أن الحجـة تثبت بـه ثبوتهـا بالموتصل ، لان من بعـد كبار التابعين لا أعلم منهـم واحـدا يقبل مرسله لامور أحدها أنهم أشـد تجوزا ، والاخر أنهم يوجد عليهـم الدلائل فيمـا أرسلوا بضعف مخرجه ، والاخـر كثـرة الاحالـة » (٤) .

● ● ●

قال الشافعى : قـال لى قائـل : قـد فهمت مذهبك فى أحكام الله ثم أحكام رسوله ، وأن من قبل عن رسول الله فعن

الله قبل ، وقامت الحجة بألا يحل لمسلم علم كتابا ولا سنة أن يقول بخلاف واحد منهما ،فما حجتك فى أن تتبع ما أجتمع الناس عليه ، ... ويــرد الشافعى على السؤال الــذى طرحه يتناول مركز للمصدر الثالث للتشريع وهو «الاجماع» .

والاعتماد على الاجماع قائم على أساس أن الامة لا تجتمع أبدا الا على سنة وان لـم يكن هناك نص عليها . على أنـه اذا عزبت السنة عن بعضهم فانها لن تعزب عن جميعهم ، وقد وردت الاثار تؤكد اهمية الاجماع كمصدر ثالث للتشريع .

● ● ●

ويرد القياس بعد الاجماع ـ فى رأى الشافعى ـ كمصدر رابــع للتشريع ... وعنده أن القياس والاجتهاد أسمان لمعنى واحد ، فكل مانزل خاصا بمسلم .. امــا أن يكون فيه حكم لازم يجب اتباعــه ، واما الا يكون فيــه حكم بعينه فتطلب الدلالة على سبيل الحق فيــه بالاجتهاد ، والاجتهاد قياس . والقياس من وجهين : أحدهما أن يكون الشىء فى معنى الاصل فلا يختلف القياس فيه . أو أن يكون الشىء له فى الاصول أشباه فلذلك يلحق بأكثرها شبها بــه .

وتتضح علاقة القياس بالاجتهاد فى تحديد الهدى على من قتــل الصيد محرما .. فالقياس والاجتهاد متداخلان فى تحديد مثــل ما قتــل مــن النعــم .

* * *

ويرى الشافعى أن الاستحسان يعنى التلذذ ، وهو كمصدر للتشريع « لا يجب أن يقول فيــه الا عالم بالاخبار ، عاقــل بالتشبيه عليها ، واذا كان هكذا كان على العالم الا يقول الا من

جهة العلم ـ وجهة العلم الخبر اللازم بالقياس على الصواب » « ولو استحسن بلا خبر لازم ولا قياس كان أقرب الى الاثـم مـن الذى قـال وهو غيـر عالـم » .

« ولا يكون لاحد أن يقيس ـ أو يستحسن أيضا ـ حتى يكون عالمـا بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف ، واجماع الناس واختلافهم ولسان العرب ، ولا بـد أن يكـون صحيح العقل ، وحتى يفرق بين المشتبه ، ولا يعجل بالقول به دون التثبيت » .

... ان المنهج الاسلامى فى البحث .. منهـج موضوعى لا مجال فيـه للتعالم والاهواء والاحكام المسبقة والجراة التى تمتهن أبجدية البحث ، وتلوى عنق النصوص لكى تصـل الى تأصيـل انحرافاتها والحصول عـلى مبـرر للعبودية الفكريـة الرخيصـة .

وفى عصرنا الذى كثر فيه المفتون تصدر كلمات الاستحسان والتفضيل دون تحقيق لابسط أدوات المنهج الاسلامى فى هؤلاء المفتين ، دون اتبـاع لاصول منهج البحث .. وهؤلاء المفتون المنحرفون يتلذذون بذلك ،ويضعون أنفسهم فى عداد المفكرين !!

على أن الامور لا تسير وفق القواعد الكلية التى ذكرها الشافعى للبحث وحسب ، بل هناك فى داخل القياس مراتب، وهناك للاجتهاد أصول ، وأمـا الاستحسان فهو لمن تحققت فيه الشروط وكان أهـلا للرأى .

.. وحتى الاختلاف بين أهل العلم والفقه .. لـم يات هكذا .. لان أحدهم تحققت فيه الشروط وبعضهم كان مجردا منهـا .. كـلا .. فدخول هذا الباب كـان مقيدا بالشرط ، وانمـا يستند الخلاف على قواعد سليمة يستند عليها كل منهم

وكان له فى اذهانهم قواعد مرعبة ، بل ان فيه مناطق يحرم الخلاف فيهـا ·· ومناطق يجب الاجتهـاد فيهـا ·· والتمسك بالرأى ، ولا يحل فيها التقليـد ·

● ● ●

ان محاولة الوقوف عنـد مصدر تراثى كالرسالة لامامنا الشافعى لا تقف معطياتها عند حدود القضايا التى عالجها ، ولا الجديد الذى انفرد بـه ، وانما يتعدى الامر ذلك الى كثير مـن المعطيات التى يعتبر المثقفون من جيلنا فى مسيس الحاجة الى التعرف عليهـا ·

·· اننا ـ على سبيل المثال ـ نستطيع التعرف على منهج البحث فى عصر مزدهر مـن عصور حضارتنا ، ولا سيمـا أن امامنا الشافعى من أبرز الممثلين لهذا الدور ·

ونحن نستطيع كذلك التعرف على قدرة أسلافنا فى التوليد والبتكار ··· والتحليل العلمى ·· ومدى الاعتماد على العقل فى مجـال النقـل ·

وحتى الشكل أو القالب ، هل يتخذ شكل التقرير دائما أو يعتمد على أكثر من أسلوب ، كما فعل الشافعى فى استخدامه الحوار عبـر أكثـر صفحات الكتاب ·

كل ذلك مفيد وحيوى بالنسبة لقضية امتدادنا الثقافى ··

بيـد ان ثمـة فائدة هامة يعرفها عن الشافعى تلامذتـه ومريدوه وقارئوه ··· فالشافعى ليس صانـع مـذهب فقهى وحسب ، ولا صاحب أول عملية تقنينية «أصولية» للبحث فى الفقـه فقط · بل أنه ـ مع ذلك كله ، عالم لغـة حجة ثبت ، وهو ـ فى الرسالة ـ يعطينا كثيرا من الاستعمالات التى تعتبر

خاصة بـه ، تنسب اليه ، ويحتج بهـا عنه . ونذكر عـلى سبيل المثال بعض هذه الاستعمالات الشافعية .

- حذف نون المثنى دون مبرر مثل (لا خفى عليه لبسهما) اى لا خفين عليه لبسهمـا .
- حذف النون في الافعال الخمسة دون ناصب ولا جازم كقوله (الاقراء الحيض فلا يحلوا المطلقة حتى تغتسل من الثالثة) أى فـلا يـحلون .
- تسهيل الهمزة أو حذفها مع أن الهمزة أصلية مثل (يوطين ويستبرين) .
- العطف على المرفوع (منصوبا) بتقدير فعل محذوف مثل : هذا الصنف موجود نصا ، وموجودا عامـا ـ أي ونـراه موجودا .
- استعمال « أبو » بالواو نصبا وجرا مثل : عن سالم أبو النضر (أبى النضر) ..
- نصب اسم كان المؤخر بعد الجار والمجرور أو الظرف كقوله « فكان مما ألقى فى روعه سنته » بنصب سنته .
- جعل اسم كان ضمير الشأن والجملة بعدها خبر مثل «فكان ما سمى حلالا حلال وما سمى حراما حرام » .
- ذكر الفعل المجزوم على صورة المرفوع مثل : لم يقيسه على الديـة .. أى لـم يقسـه .
- اسناد الفعل الى المثنى أو الجمع مع وجود ضميره مظهرا مثل : كن النسـاء .

● اثبات اليـاء في المنقوص النكرة رفعـا وجرا مثل (في غير ستيـر علي مصلي) ٠

● استعمال الواو بمعنى الفـاء ٠

ولعل هناك غيـر ذلك من الاستعمالات اللغويـة الخاصة بالشافعي ، وهي شاهد علىثقـة الشافعي بنفسه وثقـه رجال عصره فيـه ٠٠٠٠ اذ أن عصر الاحتجاج باللغة كان قد انتهى ـ كمـا هو معلوم ـ ومـع ذلك لـم يجرؤ أحـد على تخطئة الشافعي ٠

● ● ●

بقيت ملاحظات عابرة حول التحقيق ٠٠

ومما لا شك فيه أن أستاذنا الكبير العلامة أحمد شاكـر رحمه الله ـ قـد أسـدى الى الرسالة والى تـراث الشافعي ـ رحمه الله ـ خدمة كبيرة ، وهو ـ بالتأكيد ـ غنى عن التقريظ مـن تلامذته أو تلامذة تلامذته ٠٠

ولقـد كـان ضبطه للكتاب ، ومقارنته مجموعة النسـخ المختلفة ـ التي حصل عليها للرسالة ، ومحافظته على الاصل محافظة تامـة ، ومجموعة الفهارس التي الحقها بالكتاب ٠٠

كانت هذه وغيرها سببا في جعل التحقيق عمـلا طيبـا لائقـا بالمحقق الكبير بيـد أننـا كنـا نامل أن يقـوم أستاذنا المحقق بوضع عناوين فرعية أو هامشية للموضوعات التي يغلب عليها الانسياب والتداخل ، تنظيما لافكاره ، وتسهيلا بالتالي للقراء الذين بوعد بينهم وبين تراثهم ، أو الذين لا يطيقون الصبر على قراءته ،كما أن هناك بعض القضايا ، والمصطلحات الفقهية كانت في حاجة الى شرح ٠

ولست أفهم سببا لوضع ثلاث عشرة صفحة مصورة من صفحات المخطوط فى صدر الكتاب ، ألم تكن صفحة واحدة كافية للدلالة على طبيعة الجهد الذى بذله المحقق الكبير .. ؟

وانه ــ بحق ــ لجهد غنى عن التعريف والتقريظ . ورحم الله المؤلف والمحقق معا .

● ● ●

---

(١) فى رأى الشافعى أن القرآن لا ينسخ السنة ، وعند نزول قرآن بنسخ سنة لا بد من سنة تفيد هذا النسخ لضرورة اتحاد الدرجة ــ فى رأيه ــ بين الناسخ والمنسوخ .

(٢) يعنى أننا نطيع أوامر الرسول بناء على أمر الله لنا ــ أمرا عاما ــ بطاعته «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » .

(٣) بمعنى ضرورة اتحاد الدرجة فى الناسخ والمنسوخ . فالقرآن ينسخ القرآن والسنة تنسخ السنة .

(٤) كثرة الاحالة تعنى هنا كثرة التناقض .

دراسة لظاهرة حضارية اسلامية

المد والمجزر

وعلاقتهما بالوحدة والتفرق

فى التاريخ الاسلامى

فى الحضارة الاسلامية يبدو محور « الوحدة » لامة «التوحيد» محورا ثابتا ، فالخطاب لم يرد فى القرآن لفرد ولا لطائفة ، بل دائما جاء الخطاب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، والدعوة لم تكلف بها طائفة دون طائفة ، بل الامة كلها أمة دعوة «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » (١) « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٢) وكما يقول بعضهم : اذا كان الاسلام دين التوحيد ، فان أمة الاسلام هى الامة الواحدة ... وليس فى قواعد الاسلام وفرائضه الا ما يحمل معنى الوحدة ، فالقبلة الواحدة ، والصلاة فى جماعة والحج الى بيت الله الحرام للطواف والسعى فى زمان ومكان واحد «وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون» (٣) .

وتاريخ المسلمين يدور حول محور الوحدة والتوحيد فان بلاد المسلمين شاسعة مترامية ، وموارد الثروة فيها منثورة على بساط فسيح يمتد من محيط الى محيط ، وهذه البلاد الاسلامية هى مركز الدنيا والمطامع فيها كثيرة والطامعون أكثر من أن يحصوا ، وهى مطامع ـ كما يفيدنا التاريخ ـ لا ترتد الا اذ أعد لها المسلمون ـ عن طريق الاتحاد ـ ما يكفى لردها من القوة المتجددة عاما بعد عام ، ولن ينقطع شر الاعداء الا اذا اجتمعت القوى الاسلامية لردهم عن أى

---

(١) البقرة ١٤٣ .
(٢) آل عمران ١١٠ .
(٣) المؤمنون ٥٢ .

موضع مـن البلاد أرادوه بأذى ، وفى أى وقت ظنوا فيه غـرة المسلمين (٤) ...

وإذا تأملت تاريخنا الاسلامى عبـر الاربعة عشـر قرنـا المنصرمة ، وجـدت المـد والجـزر فيـه يخضعـان لقاعـدة «الوحدة» فمع الوحدة المـد ، ومع الفرقة الجزر ، بـل ان أبطال هذا التاريخ على العكس من تواريخ كثير من الامـم — انمـا هـم أبطال الوحدة والتوحيد .

اننـا لهـذا نرفـع فى نفوسنا وفكرنا رجال الاسلام الاول الـذين قضـوا عـلى عوامل الفرقة استجابة لتعليمات دينهـم « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » (٥) .

ونحن نرفع الى مراكز البطولة الصحيحة كل مـن سـار على درب رجال الاسلام الاول من أمثال عظماء بنـى أميـة كمعاوية وعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز ، وبنـى العباس كالمنصور والمهـدى والرشيد ، وفرسان السلاجقة مـن أمثال طغرل بك وألب أرسلان وملكشاة ، ثـم أبطال الحروب الصليبية مثل عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود وصلاح الدين الايوبى ، ثـم عظماء دولـة المماليك كالظاهر بيبرس وسيف الدين قطـز والناصر محمد قلاوون ، وعظماء الاندلس والمغرب مثـل يوسف بـن تاشفين زعيم دولة المرابطين وعبـد المؤمن بن على المؤسس الحقيقى لدولة الموحدين ... الى أن يصـل الامـر الى عبـد العزيز ابن سعود (موحد الجزيرة)

---

(٤) أنظـر / حسين مؤنس ، نـور الدين محمود / ٢ وما بعدها بتصرف .

(٥) آل عمران ١٠٣ .

و «الفيصل بن عبد العزيز» رائد التضامن الاسلامى ... هذا فى مقياس حضارتنا وتاريخنا .. فى حين أن أبطال التاريخ الاوربى انما هم على العكس أبطال التفريق والتقسيم « فولهم ..... » يعتبر رمز البطولة السويسرية لانه فصل بلاده عن امبراطورية الهابسبورج ، « وولهم الصامت » كبير أبطال الاراضى المنخفضة ، لانه فصلها عن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ومارتن لوثر أكبر أبطال التاريخ الالمانى لانه قسم الناس الى بروتستانت وكاثوليك (٦) ... وهكذا

ويضاف الى ذلك أن الوحدة حقيقة قائمة فى كل مراحل تاريخنا ـ على امتداد الشعوب الاسلامية ـ وانما القضية قضية ارتفاع بهذه الوحدة ـ حتى تؤتى ثمارها عبر روافدها التنظيمية من أطر ثقافية واقتصادية وسياسية وعسكرية متكاملة ـ فليس ثمة مسلم الا وهو يحس بالاخوة لاخيه المسلم أخوة فى العقيدة وأخوة فى الشعور ، وأخوة فى الهدف ، وأخوة فى الالم والامل، وأخوة ـ عامة ـ تعبر عن أقوى صور التوحد والامتزاج فى كل منابع الفكر والضمير والوجدان والروح .

والمعروف من تاريخنا أن الشعوب الاسلامية عاشت فى أحقاب كثيرة بعضها منفصل عن بعض ، ولكنها ظلت دائما ترتفع بمشاعرها وايمانها فوق هذه التمزقات ، وما من مسلم الا ويشعر أنه أخ لكل مسلم فى مشارق الارض ومغاربها ، لان فكرة الوحدة مرتبطة فى أساسها بفكرة الاسلام ، ونحن نجد ذلك فى سلوك الرسول ﷺ عندما وضع أول دستور لدولة الاسلام فى المدينة المنورة ... لقد قرر فيه عليه الصلاة والسلام « أن

---

(٦) أنظر حسين مؤنس : مرجع سابق ص ٣ .

المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومـن تبعهم فلحق بهـم وجاهد معهم أمـة واحدة من دون الناس » ٠٠ وان هذا النص لعظيم القيمـة ، اذ انـه جعل الوحدة الصفة الاولى للامـة المسلمة مهما اختلفت مواطنها وبلادها ٠ وقال : « ان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى وسيعة (عطية) ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ٠٠٠ وأيديهم عليه جميعا ولـو كـان ولـد أحدهم » ٠

وقال : « وان ذمـة الله واحدة : يجير عليهم أدناهم ، وان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس» ٠ وقال : «وان سلـم المؤمنين واحدة » ٠

وقال : « وانكم مهما اختلفتم فيـه من شىء ، فان مرده الى الله عز وجل ، والى محمد ﷺ » (٧) ٠

وفى «دستور المدينة» الذى أطلق المؤرخون عليه مصطلح «الصحيفة» هى بداية الانطلاق ، سواء فى دولة الاسلام الاولى بالمدينة ، أو فى بداية دورة من تاريخنا نتأهب فيهـا لاقامـة صرح حضارة اسلامية ، وتحقيق حياة قويـة عزيزة : « ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » (٨) ٠

الوحـدة الاسلامية وعبـرة التاريخ :

بين أيدى المسلمين تجربة تاريخية هائلة استمرت أربعـة عشر قرنـا من الزمان ٠٠ انها زخم من المعطيات الحضاريـة

---

(٧) ابن هشام : السيرة النبوية ١١٨/٢ ، ١١٩ بتحقيق محمد محيى الدين نشـر القاهرة ٠

(٨) آل عمران ١٠١ ٠

ومن حسن حظ هذه الامــة أن تاريخها مدون على نحو دقيق فى حوليات تاريخية ـ عاما بعد عــام ٠٠ وكأنه شريط ممتــد موصول الحلقات .

أرجع الى سيــرة النبى لابى محمد عبد الملك بــن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ فستجد فيها عرضا وثائقيا لحياة النبى ﷺ حتى لقى ربــه .

وأرجع الى تاريخ الرسل والملوك للمؤرخ المحدث المفسر محمــد بن جرير الطبرى المتوفى سنــة ٣١٠هـ فستجد الرجــل يعرض أمامك لوحة كاملة لثلاثة قرون يسوق فيها حشدا هائلا مــن المعلومات ـ حتى ما يرفضه هــو نفسه ـ يسوقة ـ كذلك اعطاء لامانة التاريخ حقها ٠٠ وارجع الى «الكامل» لعز الدين بــن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ فستجد أمامك لوحة أكثر امتدادا تتتبع الوقائع عاما بعد عــام طيلة ستة قرون ٠٠

وارجع الى شهاب الدين النويرى (ت ٧٣٢هـ) والمقريزى (ت ٨٤٥ هـ) وأبى المحاسن بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ) والسيوطى (ت ٩١١) ٠٠٠

وأرجع الى المؤرخ أبــى الفلاح عبــد الحى بــن العمــاد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩هـ صاحب كتاب «شذرات الذهب فى أخبــار مــن ذهــب » فستجد أمامك لوحــة التاريخ الاسلامى مبسوطة خلال « ألف سنة » كاملة لــم تند منها سنة واحدة .

ان هذا التاريخ ـ بهذا الوضوح وهذا الامتداد ـ تجربة لا يجوز أن تهمل ، بل أنها لتحتاج الى دراسات متأنية تعتمد عــلى منهجى التحليل والتركيب لكى تعطينا ـ فى النهاية ـ

المؤشرات المستخلصة والعبر المستفادة .. حتى لا تتكرر - دائما التجارب المهلكة ، وحتى نعرف - أيضا - وسائل البناء وعوامل الهدم تلك التى تبدو وكأنها تدور فى تاريخنا حول هذا المحور « محور التضامن والوحدة .. أو التناحر والتمزق » فلنقلب فى هذه العجالة - بعض هذه الصفحات لنعرف السلب من الايجاب ولنقف عند المعطيات الكبرى لهذه الظاهرة التى تشبه أن تكون سنة لتاريخنا أو قانونا يحكم مسيرة هذا التاريخ .. انها ظاهرة «الوحدة» - كمؤشر ايجاب - «والتمزق» الذى قد يسمى استقلالا - كمؤشر سلب - فى تاريخنا وحضارتنا .

عـــام الجماعـــة :

مـن التمزق والفرقة والضعف انتشل الاسلام الجماعة المؤمنة ... انه يمن عليها بهذه اليد الكريمة « واذكروا نعمة **الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بيـن قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا** » (٩) ولقد حفظ الاسلاف للاسلام هذه اليد الكريمة . وكما برئت عقولهم مـن الكفر فقـد برئت قلوبهم مـن دعـوة الجاهلية المنتنة ، وعبثا حاول اليهود اثارتها ففشلوا ، والتقى الانصارى بالمهاجرى على منهج سواء « **يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** » (١٠) .

وبعد وفـاة الرسول ﷺ ظهر أن بعض العرب قد أسلموا دون أن يتمكـن الايمـان من قلوبهم ، فقامت حروب الردة ، وعادت للجزيرة وحدتها ... **وفى ظل هذه الوحدة أقدم أبـو**

---

(٩) آل عمران ١٠٣ .

(١٠) الحشـر ٩ .

بكـر الصديق رضى الله عنه على توحيد الجيوش لغزو دولتى الفرس والروم فى آن واحد . وفى عهد خليفته عمر بن الخطاب فتحت العراق وفارس وفلسطين والشام ومصر فى فتـرة لـم تتجاوز العشر سنوات ، وفى عهـد عثمان بـن عفان (الخليفة الراشدى الثالث) فتحت بلاد أرمينية وقبرص وافريقية .

فلما قتل عثمان رضى الله عنه سنة (٣٥هـ) وحدثت الفتنة بيـن المسلمين توقفت الفتوحات بـل انها انتكست فى افريقية والمغرب ... حتى انتهى الخلاف بين المسلمين بتنازل الحسن بـن على رضى الله عنه لمعاوية بن أبى سفيان «الاموى» حقنا لدماء المسلمين وتوحيدا للكلمة فعادت حركـة الفتوحات مـن جديد ، وسمى هذا العام الذى اتحدت فيـه كلمة المسلمين ، وهو عـام (٤١هـ) « بعام الجماعة » !!

كانت بركـة « عـام الوحدة والجماعة » عظيمة عـلى المسلمين ، والاسلام . وحتى مـع ظهـور بعض الخلافات ـ بعد ذلك ـ أيام عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير والتى انتهت بموقعة « مرج راهط » فـان ثمار هـذه الوحدة ظلت تؤتى أكلها على امتداد القرن الاول الهجرى كله . لقد أخضعت جيوش « بنى أميـة » ثورة فارسية هدفت الى الامتناع عـن دفع الجزية ، ثم توغلت الجيوش فعبرت نهر جيحون وفتحت بخارى وسمرقند وترمذ .

وبالنظر الى جهـة الروم نجد أنهم قـد استغلوا فرصـة الخلافات الاسلامية وأكثروا مـن الغارات على حدود الدولـة الاسلامية فى الناحية الشمالية الغربيـة ، فاعـد معاوية لهـم الجيوش وانتصر عليهم فى مواقع كثيرة ، وبأسطوله الذى بلغت عدتـه ألفـا وسبعمائة سفينـة استـولى عـلى قبرص ورودس

وغيرهما من جزر الروم ، كمـا قـام بالمحاولة الاولى لفتـح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية سنة ٤٨هـ فأرسل جيشا بامرة ابنـه يزيد ، وجعل تحت امرته عددا مـن خيرة الصحابة كعبـد الله بـن عباس ، وأبى أيوب الانصارى لكـن المحاولة لـم تنجح ٠

وفى المغـرب الاسلامى (ليبيـا ـ تونس ـ الجزائـر ـ المغرب الاقصى) امتد الفتح الاسلامى ، فأرسل معاوية عقبة ابن نافع سنـة (٥٠هـ) فى عشرة آلاف مقاتل لاعادة فتحها ، فبنى عقبـة مدينة القيروان ، وعمل على نشر الاسلام بين البربر ، وفى عهـد يزيد بن معاوية ، وصـل عقبـة فى اكتساحه للشمال الافريقى حتى المحيط الاطلسى غربـا ٠

وفى المشرق الاسلامى اتجهت جيوش بنى أمية الى بـلاد ما وراء النهر ، وكانت القيادة فى هذا الركن للمهلب بن أبى صفرة ، وليزيد بن عبد الملك ، وكان من أبرز الفتوحات فتـح بلخ والصفد ومرو وبخارى وسمرقند ٠٠ وذلك كله على يـد قتيبـة بـن مسلم ، أحـد قواد بنى أميـة ٠ وعلى يـد قائـد أمـوى آخـر هـو محمـد بـن القاسـم الثقفى فتحت السنـد (باكستان) ، وفتح القائد مسلمة بن عبد الملك ـ فتوحات كثيرة فى آسيـا الصغرى ، منها فتـح حصون طوانة وعمورية وهرقلة وسبيطة وقمونية وطرسوس ٠٠٠٠

وفى أوربا فتحت جيوش بنى أميـة بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير «الاندلس» ووصل السمح بن مالك الخولانى وعنبيسة بن سحيم الكلبى الى جنوب فرنسا وسبتمانيا الى أن توقفت هذه الفتوحات ـ على أرجح الاراء ـ عند بواتيه (بلاط الشهداء) سنـة ١١٤هـ أيام ولاية عبد الرحمن الغافقى عـلى

الاندلس (١١) وهكذا كان (عام الجماعة) خيرا وبركة على المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها .

المرابطون : موحدو المغرب والاندلس :

فى سنة ٤٢٢هـ سقطت خلافة بنى أمية فى الاندلس ، بعد حياة دامت نحو ثلاثة قرون (١٣٨ -٤٢٢هـ) وبعد أن كانت الاندلس تنعم فى ظل بنى أمية بالوحدة والرخاء اللذين بلغا أرفع درجاتهما فى عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) والحاجب المنصور بن أبى عامر (ت ٣٩٢) الذى غزا سبعا وخمسين غزوة لم يهزم فى واحدة منها قط (١٢) - اذا بها تنحدر الى مستوى مروع من الفتن والطائفية كاد يودى بها خلال القرن الخامس الهجرى .

وبعد أن كانت دولة واحدة تخضع لامير واحد ، ويطلق على عاصمتها قرطبة «جوهرة العالم» اذ بها تنقسم الى أكثر من عشرين دولة متعاصرة موزعة بين البربر والعرب والصقالبة ومن هذه الممالك مملكة بنى زيرى فى غرناطة ومالطة ، وبنى الافطس فى بطليوس ، وبنى ذى النون فى طليطلة ، وبنى رزين أصحاب السهلة ، ومملكة خيران العامرى فى المرية ومرسية ومجاهد العامرى فى دانية والجزائر ، وبنى عباد فى أشبيلية ،

---

(١١) راجع فى فتوحات بنى أمية : الطبرى سنة ٤١ وما بعدها وابن الاثير «الكامل الجزء الثالث» والبلاذرى فى فتوح البلدان و د. / محمد الطيب النجار الدولة الاموية فى المشرق . وغيرها .

(١٢) أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب الاندلسى ط ١ بيروت ١٩٧٨ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

وبنى هــود أصحاب سرقسطة وبنى القاسم فى البونت ، وبنى حمود بالجزيرة ، وبنى جهور فى قرطبة ...

وهكذا انتثر عقد الاندلس الى هــذه الدويلات الهزيلــة التى يأكــل بعضها بعضــاً وليس بينها تفاوت يذكر فى النظــم والادارة ،فكلها نظم مستبدة ،مستهينة بالدماء مكثرة من أسباب الترف وضروب العمران (١٣) .

وكما يقول «المقرى» فقد نشــأ بينها من المفاسد ما أعوذ دفعــة وتقدد وتره وسقفه ، واستحكم ضــرره حتى لــم يمكن دفعــه (١٤) وبدلا من أن تتحد قواهم فى مواجهة عدو صليبى مشتــرك ، تشتتــوا ، وتقاتلوا ، حتى ضعفت قواهــم ، فلــم يستطيعوا أن يصمدوا أمــام هجمات النصارى ، كذلك كــانت حروبهم الداخلية سببــا فى أن يستنجــد بعض هــؤلاء الملوك والامراء بقوات من النصارى ليستعينوا بهــا على منافسيهم من الملوك المسلمين مما أتاح الفرصة للنصارى أن يبدءوا فى استقطاع أجزاء مــن أرض الاندلس الاسلامية ، وأن يبدءوا – فى هــذا العصر الكئيب – رحلة الاسترداد النصرانى (١٥) فى هذه الحقبة نفسها التى انحدرت فيها الاندلس الى هذا المستوى الطائفى

---

(١٣) د. / احسان عباس : عصر الطوائف والمرابطين ص ١٦ ، ١٧ ، وانظر دولــة الاســلام فى الاندلس : عصــر الطوائف لمحمد عبد الله عنان وغيرهما .

(١٤) أزهار الرياض ٦٠/١ طبــع مصــر وانظر محمــد عبد الله عنان دول الطوائف ١٣ طبع مصر ١٩٦٠ .

(١٥) د. / عبد الحليم عويس : ابن حزم الاندلس ص ١٦ طبع مصــر .

المروع ـ والذى بـدأ فيها النصارى ينتعشون ـ فى ظـل تفكك المسلمين ـ حتى استولوا سنة٤٧٨هـ على طليطلة قلب الاندلس وعاصمة الثغر الاوسط وبلغ اليأس فيها ـ من المسلمين ـ كل مبلغ ، حتى قال شاعرهم ابن العسال :

يأأهل أندلس شدوا رواحلكم
فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

وحتى قال الشاعر أبو السعد بن رشيق القيروانى :
مما يزهدنى فى أرض أندلس
ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها
كالهر يحكى انتفاضا صولة الاسد

أقول : فى هـذه الحقبة لـم يكـن سكان المغرب العربى أحسن حالا من جيرانهم على الشاطىء الاخر بالاندلس .... بـل ان محنتهم لـم تكن فتنة سياسية فقـط ، كحال اخوانهم فى الاندلس ، بل كانت محنـة سياسية ودينيـة معـا .

فعلى الساحة المغربية الجنوبية والشمالية انتشرت طوائف الدجالين والمتنبئين والروافض والوثنيين .. وتعصبت كـل طائفة لاكاذيبها ودجاليها لمجرد العنصرية .

ففى قبيلة «غمارة» المصمودية التى كانت تسكن جبـال الريف من نواحى سبتة شمالا الى وادى نكور ، وجنوبا الى فاس ظهر فيهم دجال متنبىء يدعى « حاميم بـن من الله » ولقب بالمفترى ، وأجابة بشر كثير من غمارة ،واقروا بنبوته ،

ووضع لهم شريعة ـ حذف فيها الصلوات الخمس ، ووضع لهم قرآنا باللسان البربرى وأسقط الحج والطهر والوضوء(١٦)٠

وفى قبيلة «برغواطة» المصمودية التى كانت تعيش قرب مدينة الرباط الحالية ادعى أحدهم ، ويدعى «صالح بن طريف» أنه نبى ، وشرع لاصحابه صوم رجب بدل رمضان ، وفرض عليهم خمس صلوات فى النهار ، وخمسا بالليل ، ووضع لهم ـ كسابقه ـ قرآنا بالبربرية (١٧) وفى بلاد السوس من جنوب المغرب انتشرت النحل الباطنية ، والوثنيات المختلفة ، وصور كثيرة من الدجل والشعوذة ٠

ومع هذا الاختلاف العقائدي المزرى ساد الخلاف السياسى كذلك ، فكان دأب زناته أن تحارب صنهاجة «الشمال» فى المغرب الادنى والمغرب الاوسط ، وكان الصراع قائما بين زناتة وغمارة وبرغواطة ومكناسة ومغراوة وبنى يغرن ، وبنى باديس وبنى حماد (صنهاجة الشمال) أما القوى البارزة التى كانت تنتظم المغرب والتى لم تهدأ الحرب بينها ، فهى قوى بنى يغرن ، وبنى زيرى ، وبنى حماد ، وبقية الادارسة فى الشمال ومغراوة ، وأتباع بنى امية فى الاندلس وكان من نتائج هذا التفكك ـ فضلا عن انتشار الفساد الذى بلغ ذروته فى ظاهرة ادعاء النبوة ـ سيطرة الضعف والحروب التافهة بين الجميع ، حتى غلبت عليهم دولة (غانا) الوثنية فى السودان الغربى،

---

(١٦) د٠ / احمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والاندلس ٢٩٨ طبع الاسكندرية ٠

(١٧) المكان السابق ٠

وقـد بلغت أوج عزها ـ بفضل ضعفهم وتفرقهم ـ خلال هـذه الحقبـة من القرن الخامس الهجرى ...

● ● ●

وقـد شاء الله سبحانه وتعالى أن يمـد فى عمر الاندلس الاسلامية ، وأن ينقذها من ملوك الطوائف المستهترين ، وأن ينتشل المغرب من هـذه الفتن الدينية والسياسية ـ فظهـر فى منطقة الصحراء (بلاد تامينراست وماحولها حتى موريتانيا) حركة دينية صافية انتشرت بين قبائل الطوارق الملثمين (١٨) (صنهاجة الجنوب) وتزعمها بعض المخلصين الذين ساءهم

---

(١٨) دخل الطوارق الاسلام ابان ولاية عقبة بن نافـع الثانية (٦٢-٦٤هـ) وبفضل سياسة مساعده العظيم أبى المهاجر دينار ، أى أن دخولهم فى الاسلام تم فى العقد السابع من القرن الاول الهجرى . وقـد ظل أمر الطوارق فى التاريخ الاسلامى المغربى عاديا يتعرض للمد والجزر الـذى يتعرض لـه تاريخ المغرب كله ، حتى جاء القرن الخامس الهجرى . ذلك القرن الذي كان نصفه الاول عصر طوائف وفتنة فى المغرب والاندلس على السواء لكن نصفه الثانى حمل معه بروز أهم مرحلة عقدية وسياسية فى تاريخ الطوارق ، وهـى مرحلـة دولـة المرابطين (الطارقية) (٤٣٠ ـ ٥٤٠هـ) وهى الدولة التى ابرزت عـددا من عظماء التاريخ المغربى كله وطهرت المغرب الاقصى وموريتانيا والمغرب الاوسط من الردة والوثنية ووحدت المغرب والاندلس بقيادة يوسف بن تاشفين وهزمت النصارى فى الاندلس فى موقعة الزلاقة (٤٧٩هـ) (أنظر فى تاريخ المرابطين الدراسة الرائعة: قيـام دولة المرابطين للدكتور حسن أحمد محمود) .

ما وصل اليه الحال فى المغرب ، من أمثال عبد الله بن ياسين العالم المخلص ـ تلميذ أبى عمران الفاسى ويحيى بن ابراهيم، وأبى بكر بن عمر اللمتونى ، ويوسف بن تاشفين اللمتونى ٠

وقد نجح هؤلاء العلماء والقادة المسلمون المخلصون الابطال فى القضاء على انحرافات زناتة وعلى متنبئة غمارة وبرغواطة ، ووحدوا المغرب من تلمسان حتى آخر حدود موريتانيا وقضوا على شوكة دولة غانا الوثنية ، وانفرد القائد العظيم أبو بكر اللمتونى بنشر الاسلام بين أراضى السودان الغربى كله واليه يرجع الفضل فى اسلام كثير من بلاد المغرب الافريقى ، أما ابن عمه يوسف بن تاشفين فله جهده المشكور فى اتمام تحضير المغرب ، وفى انقاذ المسلمين فى الاندلس من الفوضى الطائفية التى كادت تحدق بهم ، وكان ذلك حين عبر الى الاندلس سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) بالتنسيق مع ملوك الطوائف الاندلسيين الذين رأوا فيه المنقذ من الهلاك ، والذين اضطروا لتوحيد جهودهم تحت رايته حتى لا يقعوا فى قبضة النصارى الاسبان ، وقال أحدهم وهو المعتمد بن عباد « أمير أشبيلية » كلمته المعروفة : « رعى الجمال عندى خير من رعى الخنازير » (١٩) أى أنه يؤثر ان يكون راعى ابل عند يوسف ابن تاشفين المسلم على أن يكون راعى خنازير عند النصارى الاسبان ٠

وفى اطار هذه الوحدة وهذه الروح الاسلامية العالية ـ التقى المسلمون ، من جنود المرابطين والمغاربة ، واخوانهم

---

(١٩) أنظر : مؤلف مجهول : الحلل الموشية فى الاخبار المراكشية ٣٢ ، وأنظر السلاوى الناصرى : الاستقصا فى أخبار المغرب الاقصى ٣٥/٢ ٠

جنود المسلمين الاندلسيين – مع النصارى الذين يقودهم الفونسو السادس – الصليبى المستهتر بالاسلام – عند فحص الزلاقة فى ١٢ رجب سنة ٤٧٩ .. وكان النصر فى النهاية للمسلمين الذين قضوا على جيش العدو الذى بلغ ستين الفا ، فلم يبق منه الا ثلثمائة . وجنى المسلمون بركة وحدتهم ، وانضم الاندلس الى المغرب تحت القيادة المرابطية الموحدة ، وثبتت بلدان كثيرة كادت تسقط فى أيدى النصارى ، وتنفس المسلمون فى الاندلس الصعداء .

عبرة الحروب الصليبية :

كانت الدولة العباسية قد وصلت فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى الى مستوى كبير من التفكك والضعف، فكانت كثير من الدويلات قد ظهرت على حساب وحدة الدولة واستقلت عنها ، فبلاد الاندلس والمغرب كانت قد انفصلت عن العباسيين منذ أمد طويل ، ومصر كانت قد وقعت تحت يد الفاطميين سنة ٣٦١هـ وقد ظل الفاطميون فى صراع متصل مع العباسيين .

وقد سيطر السلاجقة الاتراك على مناطق ما وراء النهر وفارس والاناضول فى الشام ، وفقد المسلمون سيطرتهم على صقلية ورودس ، ونشت حركات القرامطة ، وافزعت العالم الاسلامى .

وفى الشام وفارس وخراسان كان الصراع محتدما بين القوى الراغبة فى الحكم من بويهيين ومردانيين وعقيليين وسلاجقة وفاطميين .

وفى اليمن كان الصراع ـ كذلك ـ قائما بين بنى زياد وبنى نجاح وبنى صليح والحمدانيين (٢٠) وهكذا امتدت ساحة الصراع فى العالم الاسلامى الى كل القوى الاسلامية . وحقيقة فقد أدى الاتراك السلاجقة خدمات كثيرة لاتنكر ، لكنهم مالوا ـ مع نهاية القرن الخامس ـ الى الانحدار ، ودبت الانقسامات فى داخل البيت السلجوقى نفسه . وبالتالى فقد العالم الاسلامى القوى التى تستطيع أن تقاوم أى غزو خارجى كبير .

فى هذا الوقت ـ بدأ الصليبيون يتقدمون الى العالم الاسلامى بقوى متحدة ـ عن بكرة أبيهم ـ فى حرب صليبية عامة على الاسلام وبدلا من أن يتحد الامراء المسلمون ضد الصليبيين واجهوهم فرادى ... وفرادى سحقوا (٢١) .

ويقول المؤرخ «باركر» : « ان نجاح الصليبيين يرجع الى المنازعات بين أمراء الشام والانقسام بين الفاطميين والعباسيين (٢٢) .

ويقول «ستفنسن» : « لقد قاوم أمراء سوريا الفرنجة متفرقين ، كل يعتمد على جهوده الخاصة وبعضهم كان تابعا لبغداد ، والاخر للقاهرة ، ولم يهتم أحد منهم بمصير الاخر» ويقول الدكتور حسن حبشى : « ان السبب . فى هزيمة

---

(٢٠) انظر أطلس العالم الاسلامى (القرن الخامس الهجرى) .

(٢١) شاكر أبو بدر : الحروب الصليبية والاسرة الزنكية ص ٢٠ نشر مصر ١٩٥٩ ط ١ .

(٢٢) نقلا عن السابق ـ ٢٠ .

المسلمين هو الانقسام المذهبى بين الجماعات الاسلامية ، ولم يكن للمحاربين عزيمة صادقة فى الجهاد أو حماية البلاد »(٢٣)

ويتحدث الدكتور حسين مؤنس عن بعض مظاهر التفرقة فيقول: « أما سلاجقة آسيا الصغرى فقد نسى «ألج أرسلان» أن أساس قوته كان تأييد السلاجقة العظام له ، وأنه ان انسلخ عنهم ضاع أمره ، وناوأه الدانشمند وانتزعوا الجزء الشرقى من ملكه ومضى يحاربهم ، وينفق جهده فى استعادة ملكه منهم (٢٤) .

ويقول الدكتور حسين مؤنس : «ان نجاح الصليبيين يرجع الى ثلاثة أمور : **الاول** تفرق المسلمين واشتغال الرؤساء بالحروب والمنازعات فيما بييهم ، **والثانى** قلة ايمان هؤلاء الرؤساء بحرمة الوطن الاسلامى وقدسية أراضية وخيانتهم للامانة التى كانوا يحملونها ، **والثالث** ضعف الفاطميين وفساد سياستهم فى أواخر أيام دولتهم » (٢٥) « وما كانت القوى تنقص رؤساء المسلمين أيام اجتياح الصليبيين بلادهم ولكنهم كانوا يحسون أنهم ضعاف ، وكانت لديهم أدوات النصر ولكن كان ينقصهم الايمان ، وكانت لاتنقصهم أسباب العزة بالاسلام ولكن قلوبهم كانت خاوية من الشعور بالايمان والعزة ، وكانوا يمثلون شعوبا تجمعت لها أسباب الشرف جميعا ، ولكن ضمائرهم كانت قد ماتت من زمن طويل ، وقوم هذه حالهم حقيقون بأن تنزل بهم الهزيمة ولو كان خصومهم هملا وغثاء كهذا الذى قذفته أوربا على بلادهم باسم الصليب (٢٦) .

---

(٢٣) المكان السابق .

(٢٤) نور الدين محمود ص ٧٩ ط أولى سنة ١٩٥٩ نشر مصر .

(٢٥) السابق ٧٩ .

(٢٦) نور الدين محمود ٨٧ .

لقد كان كل شىء فى الشرق الاسلامى يمهد السبيل للغزاة، فقد كان العالم الاسلامى ــ كما صورناه ــ أشبه باقطاعات (أتابكيات) يتوزعها أمراء متنابذون متحاربون ولم يكن ليخفى هذا الامر على أوربا الصليبية فاستغلته لصالحها أفضل استغلال وتقدمت جيوشها الى الشام ، وربما وجدت من بعض هؤلاء الامراء الخونة كثيرا من العون ، فالفاطميون يرسلون السفارة بالتأييد للصليبيين وهم يحاصرون أنطاكية ، وأمير شيزر يرسل اليهم وهم بالمعرة يطلب الموادعة على أن يشاطرهم بعض ما يملك ، ويرسل اليهم الهدايا العظيمة من أموال المسلمين ، والسلوك نفسه يسلكه أمير طرابلس الشام .. وهكذا (٢٧) .

ونتيجة لهذا سقطت أنطاكية (٤٩١هـ) وداهموا بيت المقدس سنة (٤٩٢هـ) ، حيث قتلوا من أهلها عشرات الالوف فى الاقصى والصخرة ... ووقع أمراء الشام الاقزام الخونة تحت رحمة « جود فردادى بو يون » واخوانه الصليبيين الذين لا يرحمون . ونجحت الحملة الصليبية الاولى وتكونت امبراطورية لاتينية نصرانية فى فلسطين والشام ، وخيم اليأس على المشرق الاسلامى كله .

وفى ظل هذا المناخ فشلت كل محاولات المقاومة التى اعتمدت على الفردية أو على التوحيد الجزئى عن طريق اتباع أسلوب قيام بعض الاحلاف الصغيرة لمواجهة الخطر الصليبى الكبير وهو أسلوب لجأ اليه بعض الامراء المسلمين فى ساعات العسرة ، واشتهرت به الامارات الارتقية كما حدث فى سنة

---

(٢٧) أنظر فى ذلك : الحروب الصليبية والاسرة الزنكية ٢٢ وما بعدها .

(٥٠٣هـ) حين تم تشكيل حلف اسلامى بقيادة (مودود بن التونتكين) حاكم الموصل السلجوقى الذى حل محل «جاولى» بناء على أمر من محمد بن ملكشاه سلطان السلاجقة . وقد ضم هذا الحلف الامير ايلغازى الذى تقدم على رأس قواته الضخمة من التركمان ، وسكمان القطبى أمير أرمينية ، وعددا كبيرا من المتطوعين ، واتفقت آراؤهم على بدء عملياتهم بمهاجمة الرها والاستيلاء عليها فاتجهوا اليها ونزلوا عليها فى شوال ٥٠٣هـ - ١١٠٩م وشددوا عليها الحصار . ولما عرف المسلمون قرب الصليبيين منهم ، قرروا فتح الطريق أمامهم ليتمكنوا من لقائهم فى السهول الممتدة شرقى الفرات ، فغادروا الرها فى أواخر ذى الحجة سنة (٥٠٣هـ) وعسكروا فى أرض حران ، خدعة للصليبيين وكانت حران آنذاك تابعة لايلغازى. واذ أدرك الصليبيون الهدف من هذه الحركة ، ووردتهم أخبار تشير الى تحرك رضوان لمهاجمة المواقع التابعة لانطاكية ، وتحرك المصريون لمهاجمة فلسطين أيقنوا عدم جدوى مهاجمة المسلمين ، وقرروا الانسحاب من الجهات الواقعة شرقى الفرات واخلاءها من المسيحيين (الارض واليعاقبة) الى الجهات الغربية التابعة للصليبيين ، وتقوية الامكانيات الدفاعية للرها. ولكن ما ان بدأ الصليبيون بالانسحاب واتمام نقل المسيحيين المدنيين حتى نهض المسلمون فى اثرهم ، وأدركتهم طلائع القوات الاسلامية فغنموا سوادهم وأثقالهم وقتلوا وأغرقوا وأسروا عددا كبيرا منهم ، ومن ثم اتجهت القوات الاسلامية ثانية لحصار الرها (٢٨) .

---

(٢٨) د. عماد الدين خليل : الامارات الارتقية نشر مؤسسة الرسالة بيروت ص ٢٢١ .

وفى مطلـع عـام (٥٠٧هـ ـ ١١١٣م) تحرك مودود بـن التونتكين على رأس تحالف اسلامى آخر ، بناء على استنجاد طغتكين أمير دمشق الذى تعرضت امارته لهجمات شديدة مـن قبل صليبيى بيت المقدس ، ولذا كانت فلسطين هـدف الجهاد هـذه المرة وقـد اشترك فى هذا الحلف أمير سنجار وطغتكين، أمـا ايلغازى فقد أناب عنه ابنـه اياز • وفى الثالث عشر من المحرم كـان اللقاء عند طبرية وانتهى بهزيمة الصليبيين بعـد قتال شديد أعقبته سلسلة من الانتصارات ضدهم ، أسفرت عن مقتل ما يقرب من الف ومائتين وخمسين منهم (٢٩) •

لـكن هذه الاحلاف الجزئية لـم تؤد الاغراض المرجوه وبقيت سيطرة الصليبيين قويـة على الشـام فى ظـل امارتهم الكبرى القوية التى تقف أوربا كلها وراءها •

وفى هـذه الظروف شـاء الله سبحانه أن يمنـح المسلمين الفرصة ، وأن ينقذ دينـه ، وبـلاد الاسلام ، بعـد أن عاش المسلمون نصف قرن فى «عز ذليل » بين أيدى الغاصبين •

يقول ضياء الدين بن الاثيـر : « فتدارك سبحانه دينـه وأهله بدعوة الوحدة ينادى بها نفر من فرسان الاسلام بالموصل وما زالوا يجاهدون ويستشهدون ويعقب بعضهم بعضا على حمل الرايـة » وهؤلاء هـم آل زنكى وأشهرهم عمـاد الدين زنكى ونـور الديـن محمود ووزيرهم صلاح الدين الايوبى •

وكانـت الخطـوة الاولى فى المقاومـة هـى « الوحـدة

---

(٢٩) د• عماد الدين خليل الامارات الارتقية ص ٢٢١ ـ ٢٢٦ •

الاسلامية » فقام عماد الدين زنكى بتوحيد المنطقة لمواجهة النصارى من الموصل الى حلب فى دولة واحدة ، وقضى على الامراء المنافسين بطريقة شرعية ، وسعى الى تكوين دولة متحدة من أرمينية الى حدود مصر (٣٠) ولم تمض عدة سنوات حتى نجح هذا البطل المسلم ـ فى ظلال هذه الوحدة ـ فى أن يهاجم أنطاكية حتى وصل الى اللاذقية ، وفتح حصن يعرين ، واستولى على ما بين حلب وحماة ، من الحصون الفرنجية ، واستولى على الاثارب وزردنا ومعرة النعمان وكفر طاب وجميع الريف ، وأعاد امارتى أنطاكية والرها الى الاسلام وبهذا قضى « زنكى » على أكبر الامارات الصليبية فى الشام وأخطرها بعد بيت المقدس وأدى خدمة عظمى لقضية الوحدة الاسلامية ، حين قضى على هذين الوتدين النصرانيين القويين اللذين كانا يحولان دون الاتصال المباشر بين الموصل وحلب ، ودون اتصال أتراك ايران بأتراك آسيا الصغرى ، وانقطع أمل المنافقين من أرمن هذه النواحى فى الكيد لجيرانهم المسلمين والتدبير عليهم (٣١) .

وبوفاة ذلك البطل العظيم «عماد الدين زنكى سنة٥٤١هـ» فقد المسلمون علما فذا من أعلام الوحدة الاسلامية والشرف الاسلامى ، لكنهم سرعان ما وجدوا أن بذوره الصالحة قد تركت وراءها ابنا كريما من أبنائه هو « نور الدين محمود »

---

(٣٠) السابق ص ١١٥ وأنظر ١٢٠ .
(٣١) د. حسين مؤنس : نور الدين محمود ١٧٦ .

الذى كان فى الثلاثين من عمره حين مات أبوه ٠٠ فشق طريقه ليحمل الرايــة الاسلامية ومضى يؤدى الرسالة بالمستوى نفســه الذى كــان عليه أبــوه رحمــه الله ٠

كــان لنــور الدين فضــل صــد الحملــة الصليبية الثانية والقضاء على الخونة الارمن الذين تواطئوا مــع الصليبيين ، كما قضى على الخونة المسلمين من أمثال الخبيث «معين الدين أنر » وتابعه والى بصرى التونتاش ، وضم نور الدين دمشق الى الجبهة الاسلامية كما أن ضم مصر الى الجبهة يعتبر مأثرة من مآثرة ، فهو الذى أرسل اليها أســد الدين شيركوه ومعه ابن اخيه صلاح الدين الايوبى ليخلصاها من ضعف الفاطميين وصراع الوزيرين شاور وضرغام ، وبوفاة أســد الدين شيركوه آلت مصر الى صلاح الدين وبخاصة بعد وفاة الخليفة الفاطمى (العاضد) سنة ٥٦٧ هـ ٠

وقــد سار صلاح الدين على الدرب نفسه الذى سار عليــه عمــاد الدين زنكى ونــور الدين محمود فقــام بتوحيد الشرق الاسلامى ، واستولى عــلى دمشق بعــد وفــاة نــور الدين ، وضمها الى مصر مــع كثير من بلاد الشام ، كمــا فتح أخــوه توران شــاه بلاد اليمن ، وبعد ذلك نجح صلاح الدين فى ضــم حلب والجزيرة والموصــل وبذلك ضــم صلاح الديــن الاقطــار الاسلامية فى نظــام اتحادى يمكنــه من اعــلان الجهاد ضــد الصليبيين ، بعد أن يكون قــد أمن الخطوط الخلفيه لنشاطه العسكرى ، وضمــن مــوارد عسكرية وبشرية وتموينية كافيــة لقتــال الاعــداء (٣٢) ٠

---

(٣٢) د٠ عمــاد الديــن خليــل : الامارات الارتقية فى الجزيرة والشام ص ١٣٨ طبع بيروت ٠

ولم يلبث صلاح الدين أن هاجم المناطق والمدن التى كان الصليبيون قد احتلوها ، وأسسوا فيها امارات مضى على قيامها نحو قرن من الزمان فانتصر فى موقعة « مرج عيون » – فى لبنان – سنة ٥٧٥هـ ، واستولى فى السنة نفسها على حصن الاحزان وأسر من فيه ، وحطم مغامرة « ريجنالد » فى الاستيلاء على الحجاز .

وفى سنة ٥٨٣هـ زحف صلاح الدين على رأس جيش اسلامى كبير سار به من دمشق واستولى على حصن الكرك وطبرية ، وهناك قريبا من طبرية دارت رحى معركة (حطين) الخالدة (٥٨٣هـ) بين جيش المسلمين الموحد ، وبين الجيوش الصليبية بقيادة ملك القدس وأمراء صور وعكا والناصرة والكرك ... وكانت معركة حاسمة انتصر فيها السلطان صلاح الدين وأنزل بالفرنج هزيمة ساحقة (٣٣) ، وأسر ملك القدس «لوزينان» والمغامر ريجنالد حاكم الكرك ، ومعظم قواد الجيش و (١٤) ألف جندى وقتل منهم (٩) آلاف ، وزحف صلاح الدين بطل الوحدة الاسلامية المنتصر فاستولى بسهولة – على عكا وصيدا ويافا وبيروت ونابلس والرملة ودخل القدس ظافرا فى رجب ٥٨٣هـ وكانت تلك نهاية عظيمة لمسيرة التوحد التى بدأت بعماد الدين زنكى .

---

(٣٣) المكان السابق .

التتـــار وعبـرة التاريخ :

لـم تكـد جحافل الصليبيين تنحسر عن الشرق الاسلامى حتى نكب العالم الاسلامى بمحنة أخرى أشـد وأقصى .. انها محنة الغزو الكاسح المدمر الذى شنـه التتار القادمون من بلاد منغوليا شمال شرقى آسيـا .

وفى سنـة (٦١٦هـ) استولى المغول على مدينة بخارى ، وفى العام التالى استولوا على سمرقند ، وأخضعوا سائر بـلاد ما وراء النهر التى كانت تشكل قسمـا من الدولة الخوارزمية. ولـم يقف الامر عند هذا الحـد فقـد توغلت قوات المغول فى بـلاد خراسان واستطاعت أن تسيطر على كل من بلخ ومـرو ونيسـا بـور (٣٤) .

كان العالم الاسلامي فى ذلك الوقت ـ بعد موجة صـلاح الدين التوحيدية ـ قد انقسم على نفسه ، وعاد سيرته الاولى حتى داخل البيت الايوبى ، فسادته صـور مريرة مـن الصراع والاقطاعات المتنافسة التـى كانت تسمى (بالامارات) وغابت روح الاسلام الموحدة ،وحلت نعرات عنصرية وعشائرية مكانها.

وبالمنهج نفسـه الـذى حاول بـه بعضهم مقاومة الخطر الصليبى ـ فى المرحلة الاولى ـ ولـم ينجحوا ... انه منهج الاحلاف الصغيرة الوقتية فى مواجهة القوى الكبيرة الشرسة ، بهـذا المنهـج جرت بعض المحاولات لمقاومة الخطر التترى ، فقـد سجـل التاريخ لبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل أنه وقف

---

(٣٤) د. حامد غنيم : الجبهة الاسلامية حـ٣ ـ ص ٢٤ طبـع مصـر .

الى جانب مظفر الدين ، صاحب اربل ، وقفة مشرفة ، وتضامن معـه فى مواجهة الخطر المغولى (٣٥) كمـا سجل التاريخ – كذلك – أن صاحب حلب قرر الاتفاق مـع الخوارزمية وصاحب ماردين ، على أن تعطى رأس العين لصاحب ماردين ، وتعطى نصيبين للخوارزمية ، ويتحد الجميع فى مواجهـة المغـول ، ولكن المحاولة فشلت بهزيمة الخوارزمية أمـام التتـار وتركهم نصيبين (٣٦) ٠

لكن سائر هذه المحاولات قد فشلت فشلا ذريعا لانها مجرد أحلاف سريعة غير منسجمة ولا راسخة ٠ وفى ظل هذا استطاع المغول – بعد أن قضوا على ما وراء النهر وخراسان واذربيجان وطبرستان والرى وهمذان – أن يقضـوا على دولـة السلاجقة فى آسيـا الصغرى وأرمينية ، ولم يلبثوا الا قليلا حتى زحفوا على عاصمة الخلافة العباسية بغداد ، وأسقطوها بعد مقاومة لا تذكر ، وأنهوا خلافـة العباسيين فى العراق سنـة ٦٥٦هـ ، وسفكوا الدمـاء بطريقة وحشية لـم تحدث فى تاريخ الحروب مـن قبـل ٠ وزحفوا من بغـداد الى الشـام التى كانت تحت سيطرة الزعيم الايوبى الضعيف الملك الناصر ، فاستولوا على حلب وحماة ودمشق بسهولة ويسر ٠ وبحكم المسيرة الطبيعية كـان لابد أن يسير التتار مـن الشـام متوجهين نحـو مصـر ليذيقوها الدمار الذى أذاقوه لبقية بلاد المسلمين ، وقـد كـان أميـر مصـر المظفر سيف الدين قطز ، قـد أدرك أن التتـار سيهاجمون مصر بالضرورة ، وقـد صدق ادراكه فلم يلبث أن جاءته رسالة من هولاكو ... نقتطف منها ما يلى : « مـن

---

(٣٥) د٠ حامد غنيم : الجبهة الاسلامية ٢٤/٣ طبع مصر
(٣٦) المرجع السابق ٢٥/٣ ٠

ملك الملوك شرقا وغربا القان الاعظم . باسمك اللهم باسط الارض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا الى هذا الاقليم يتنعمون بأنعامه ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الاعمال أنا نحن جند الله ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا الينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن مانرحم من بكى ولانرق لمن شكا ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الارض من الفساد وقتلنا معظم العباد (٣٧) .

والرسالة كما نرى ــ تكشف عن الخراب الذى عم العالم الاسلامى وحضارته على يد المغول ، وهم يتباهون به ، ويعتبرون هذا الخراب رسالتهم وأنهم خلقوا من سخط الله ، ليؤدب الله بهم المتهالكين على الدنيا ، المتقاتلين على أهداف صغيرة ، المتنابذين لاتفه الاسباب ، وقد كاد خرابهم يعم لولا أن جمع الله قلوب المماليك والشعب المصرى على الجهاد ، ووقف عالم فذ من علماء الاسلام هو العز بن عبد السلام الذى أهاب بالجميع أن يموتوا ذودا عن دينهم ، وأهاب بالمماليك أن يتنازلوا عن امتيازاتهم ، وبالشعب أن يندفع الى الجهاد بالدم والمال . ورأى سيف الدين قطز ــ أمير مصر ــ وقائده الظاهر بيبرس أن لا يجعلا مصر مسرح القتال بل أن

---

(٣٧) السلوك للمقريزى حـ١ / ق٢ / ٤٢٧ ــ ٤٢٩ (نقلا عن وثائق الحروب الصليبية والمغول للدكتور محمد ماهر حمادة ٣٥٤ طبع بيروت .

يبادروا بالخروج الى الشـام ، حيث يتخذون موقف الهجـوم بـدل الدفـاع ، ووقعت الحرب الاسلامية الكبرى بيـن الفئـة المؤمنة الباقية وبين المغول فى (عين جالوت) يوم ٢٥ رمضان سنـة ٦٥٨هـ فانهزم التتـار شـر هزيمة بفضل (واسلاماه) الموحدة للمشاعر والافكار والعقول ، وهي الشعار الوحيد الذى رفعـه ، وهتف بـه فى ساعـة العسرة (سيف الدين قطز) وسائر جنـد الاسلام فى عين جالوت ، فنصرهم الله به نصرا مؤزرا وهرب أمامهم المغول . وكمـا يقول الامام السيوطى : « وقتل من التتار مقتلة عظيمة وولوا الادبار ، وطمع النـاس فيهـم يتخطفونهم وينهبونهم » (٣٨) .

ولـم يكتف الجيش المسلم بهذا النصر ، بل تتبع التتار فى سائر بـلاد الشـام وأخرجهم منهـا .

وهكذا سجل التاريخ للملك المظفر قطـز أنـه فى فتـرة وجيزة لا تتعدى خمسة أسابيع – من عـام ٦٥٨هـ – استطاع أن يغير الصورة السياسية التى فرضها المغول على بلاد الشام وأن يعيدها الى واقعها السابق ، أرضا اسلامية ، وفوق ذلك فانه استطاع فى هذه الفترة الوجيزة أيضا أن يعيد الوحدة الى الجبهة الاسلامية ، وهى الوحدة التى ارتبطت بها انتصارات عديدة على الصليبيين » (٣٩) .

---

(٣٨) تاريخ الخلفـاء ص ٤٢٥ .
(٣٩) د. حامد غنيم : الجبهة الاسلامية ٣٤/٣ .

وليس هـذا فقط ، بـل انـه ـ فى الحق ـ قـد أعـاد للمسلمين جميعا ـ وليس لبلاد الشام وحدها ـ حريتهم وعزتهم وأوطانهم التى تهاوت ـ بفعل التفرق ـ تحت أقدام المغول ، فاعادها سيف الدين قطز ـ بفضل راية « واسلاماه » الواحدة الى سابق مجدها وعزتها ،والى مسيرتها الواحدة فى التاريخ !!

المحتـــوى

رقم الايداع ٨٧/٤٠٢٣

دار وهـــدان للطباعة والنشر
٦ ميدان بركــة الرطلى
ت : ٩٠٥٠٣٦ ــ ٩٢١٤٤٤